طلسمات مصرية

محمد حسين يونس

سنابل
للنشر والتوزيع

طلسمات مصرية



سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام:
د. طلعت شاهين

مدير التحرير:
علـــي حامـــد

المراسلات:
ص.ب: 22
الحي المتميز - مدينة 6 أكتوبر
جمهورية مصر العربية

Tel.: (+202)8354069
Mob.:0122250787
E-mail:
darsanabil@maktoob.com

الكتاب: طلمسات مصرية
المؤلف: محمد حسين يونس
الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٤
رقم الإيـــداع: ٢٠٠٣/١٥١٥٦
الترقيم الدولي: 977-5634-06-7

المـــــوزع
دار العلوم للنشر والتوزيع
القاهرة: ت ف / ٥٧٦١٤٠٠

تصميم الغلاف: علي حامد
تنفيذ: كامل جرافيك

إهــداء

إلى أمحوتب.. الطبيب المهندس كبير مستشاري الملك زوسر..

حاول أن يفهم، فبنى حضارة.

إلى شامبليون الذي أمضى ربع قرن يفك رموز اللغة المصرية..

حاول أن يفهم، ففهمنا معــه.

تمهيد

في كتاب "آخرة المماليك" واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تأليف ابن زنبل الشيخ أحمد الرمال ٩٦٠ هجرية، وتحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر مارس ١٩٦٢م، صادر عن سلسلة كتب ثقافية، كتب المحقق :

"لم تشهد مصر في تاريخها السياسي فترة أظلم من تلك الحقبة التي خضعت فيها لحكم المماليك البحرية والجراكسة (١٢٥١-١٥١٧م)، حوالي أربعة قرون حاق بأهلها في هذه المدة ما ران على قلوب هؤلاء المماليك الحكام من الاستعباد والقهر واشتدت الحياة على المصريين ".

خلال تلك العصور المظلمة كان سكان مصر - كما صنفهم الأستاذ عبد المنعم - ينقسمون إلى ثلاث فئات :

١- مماليك جراكسة عبيد قادمون من الشمال الشرقي دائمي الصراع على السلطة فيما بينهم أو مع أقاربهم القادمون من الشرق (أولاد حسن الطويل أو التتار أو ابن عثمان) وهم لهذا يستخلصون نفقاتهم من المصريين بالقهر والاستبداد ينفقونها على الحروب وشراء السلاح والعبيد والجواري وأسباب الرفاهية والمتع الحسية ٠٠ وكان منهم الحكام والأمراء والإقطاعيون وعساكر الدرك والجنود٠

٢- سكان الريف من أهل البلد الذين يخضعون لنظام السخرة والإقطاع البغيض يقوم على استنزافهم فلا يبقى لهم إلا الكفاف وكان منهم الزرّاع والحرفيين والتجار ورجال الدين من فقهاء وقضاة المذاهب الأربعة٠

٣- العربان وهم أبناء بعض من دخلوا مصر مع عمرو ابن العاص وظلوا على حالهم قبائل تعيش بين الأقاليم أو على حدود البلاد في مجتمعات مغلقة لا تختلط بغيرها دائمة الصراع فيما بينها أو مع المماليك تعمل في رعي المواشي والأغنام وفي قطع الطرق على

المسافرين- حتى قوافل الحج لم تسلم منهم - ونهب وترويع الفلاحين والمسافرين وكل من يوقعه حظه بين أيديهم٠

وهكذا كان المصري مُعرضاً لظلم المماليك الجلبان ورؤسائهم وأمرائهم وسلاطينهم وفي الوقت نفسه لقبائل العربان قطاع الطرق المغامرين، بالإضافة إلى الأمراض المستوطنة كالطاعون والرمد والديسونتاريا وآثار دمار فيضان النيل العالي ومجاعة وقحط النيل المنخفض .

حياة بائسة لفترة حدَّدها الأستاذ عبد المنعم بأربعة قرون، وأنا أزيدها ستمائة سنة أخرى (أي من سنة ٢١ هجرية مع دخول العرب مصر) لم تكن الأحوال فيها بأفضل مما تلاها ٠

(٢١ هجرية إلى ٩٢٣ هجرية) تسعة قرون من الغيبوبة نسى فيها المصري أنه كان حفيداً لمن صنعوا أول حضارة إنسانية في التاريخ ٠٠ تسعة قرون كان ينظر أثناءها إلى آثار أجداده ويسميها برابي، ويطلق على كتابتها لغة العصافير، وهو لا يعرف أنها شاهد على أن من بنوها قد تجاوزوا كل مقاييس عصرهم من العظمة والمجد ٠

السؤال الآن: لو لم تحدث اكتشافات حملة نابليون للهيروغليفية، ولحقيقة تاريخ هذا الشعب مع مدخل القرن التاسع عشر.. ترى هل كنا سنردد ما كان أجدادنا في عصر الظلمات يعتنقونه٠٠ هل كنا سنؤمن أن ملكة اسمها **دلوكة** قد حكمت مصر بعد أن مات كل رجالها أثناء مطاردة يهود النبي موسى وغرقهم في البحر ٠٠هل كنا سنُعلِّم أولادنا أن الذي بنى الأهرامات هو النبي يوسف أو أن اسم مصر يعود لمصريم ابن النبي نوح!!

أعتقد أن على المصري إعادة ترتيب أوراقه، وإعادة قراءة التاريخ ليعرف من هم الذين فصلوه عن جذوره وذاته، ومن الذين كان لهم فضل إعادة وصله وقراءة تاريخ أجداده٠

محمد حسين يونس

أولاً : طلسمات تراثية

مصر كما جاء ذكرها في بعض الكتب القديمة:

١- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي عام ٩٢١ هجرية، الجزء الأول، إصدار الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٢، حققها وكتب المقدمة الأستاذ محمد مصطفى، أغسطس ١٩٧٥، من صفحة ٤ حتى صفحة ٨٧ ٠

- الآيات القرآنية الكريمة في أخبار مصر
- الأحاديث النبوية الشريفة و أقوال الحكماء والعلماء في أخبار مصر
- اشتقاق اسم مصر ومعناه
- عجائب مصر وما بها من طلسمات و برابي
- ذكر من مَلك الديار المصرية في أول الزمان
- ذكر من مَلك مصر من الفراعنة
- ذكر ابتداء دولة الأقباط بمصر

٢- **مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ**، تأليف العلامة ابن الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي الشافعي المتوفي سنة ٣٤٦ هجرية، طبع بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هجرية، من صفحة ٢١٠ حتى ٢٢٩ ٠

- ذكر مصر ونيلها وأخبارها وبنائها وعجائبها وأخبار ملوكها ٠

٣- **فتوح مصر و أخبارها**، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ابن أيمن القرشي المصري (سنة ١٨٧ هجرية - ٢٥٧ هجرية)، طبع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ١٩٧٤، تقديم وتحقيق الأستاذ محمد

صبيح، من صفحة ١٧ حتى صفحة ٣١

- ذكر نزول القبط بمصر وسكناهم بها
- ذكر دخول إبراهيم وظفر العمالقة وأمر يوسف واستباط الفيوم
- ذكر دخول أهل يوسف مصر ووفاة يعقوب ودفنه
- ذكر ملوك مصر بعد زمان يوسف وحمل عظامه إلى الشام
- ذكر خروج بني اسرائيل من مصر
- ذكر الملكة "دلوكة"
- ذكر ملوك مصر بعد العجوز دلوكة

١ - بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف ابن اياس

استهل ابن اياس كتابه بأنه اطلع على " نحو سبعة وثلاثين تاريخاً " حتى يكتبه " فاستقام لي ما أريد وجاء بحمد الله كالدر النضيد " يوحي هذا بأن ما كتبه كان خلاصة علوم التاريخ حتى زمنه، أي حول القرن الخامس عشر ميلادي أو القرن العاشر الهجري، فقد أكمل كتابه حول عام ٩٢٠ هجرية.

ولقد افتتح تاريخه بما جاء في القرآن الكريم عن مصر، فكتب أن " الله تعالى ذكر مصر في القرآن العظيم في ثمانية وعشرين موضعاً، وقيل بل أكثر من ثلاثين موضعاً كناية أو تصريحاً ".

ولقد استشهد ببعض الآيات التى ذُكرت فيها مصر صراحة مثل " اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم " " وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه " " أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين " وعن فرعون "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون" .

أما كناية فقد كتب أن مصر كان يشار إليها " بالربوة ذات قرار ومعين "، وكان يُشار لها بلفظ "الأرض" مثل: " اجعلنى على خزائن الأرض "،" فرعون علا في الأرض "،" إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض " ... ثم يرجع لابن عباس في قوله إن مصر قد سُميت بالأرض في عشرة مواضع وقيل اثنى عشر موقعاً في القرآن الكريم.

كما أنها كُنيت بجنات وعيون " فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ".. المقام الكريم هنا هو الفيوم، " وقيل كان بها ألف منبر من ذهب برسم

الوزراء يجلسون عليها "٠

ننتقل بعد ذلك إلى " ما ورد بالأحاديث الشريفة "، و ذكر حديثاً شريفاً "ستفتحون مصر وهي أرض يُسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً ٠٠" وعن عمرو ابن العاص حديث نبوي آخر " إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة "، و في رواية أخرى " فإن لهم نسباً وصهراً ". ويورد عن مروان القصاص أن القبط صاهروا ثلاثة من الأنبياء وهم إبراهيم عليه السلام تسرر بهاجر أم ولده إسماعيل وكانت من قرية أمام مدينة الفرما، ويوسف عليه السلام تزوج ببنت صاحب عين شمس وكانت من قرى مصر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى بمارية أم ولده إبراهيم وكانت من قرية الضنا من قرى الصعيد، وكان اسمها مارية بنت شمعون وكانت جميلة الصورة شديدة البياض فأحبها رسول الله حباً شديداً ولما دخل عليها حملت منه ابنه إبراهيم الذي توفي بعدما عاش ثمانية عشر شهراً ولما مات قال رسول الله " لو بقي إبراهيم ما تركت قبطياً إلا وضعت عنه الجزية "٠

عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول " إذا فتح عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض "، فقال أبو بكر "و لما يا رسول الله ؟ " قال "لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة"٠

حيوه بن شريح عن عقبة بن مسلم " أن الله تعالى يقول يوم القيامة لساكني مصر يعدد عليهم " ألم أُسكنكم مصر أفكنتم تشبعون من خيرها وتروون من مائها ".

وعبـد الله بن عمر قال " قـسمت البركة عـشرة أجزاء ففي مـصر تسع وفي الأرض كلهـا واحد "، أبو مـوسى الأشعـرى " أهل مـصر الجند الضـعيف مـا كادهم أحد إلا كفاهم موتته ".

عن بعض الأحـبار أن يوسف عليـه السلام لما دخل مـصر وأقـام بهـا قال " اللهم إني غريـب فحبـبها إليَّ وإلى كل غـريب " ولذلك ما أن يدخلهـا غريب حتى يحبها ويلبد ما يخرجش. "الشرب من ماء النيل يُنسي الغريب وطنه ".

كـعب الأحبـار رضى الله عنه " لما خلق الله تعـالى الأشيـاء قال العـقل أنا لاحق بالشام فـقالت الفتنة وأنا مـعك وقال الخصب أنا لاحق بمصر فـقال الذل وأنا معك وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فـقالت الصحة أنا معك وقال الكبر أنا لاحق بالعراق فقال النفاق وأنا معك " ٠

أبو بصيـرة الغفـاري " مصر خـزائن الأرض كلها ولو زرعت كلهـا لوفيت بخراج الأرض بأسـرها ولو ضرب بينها وبين سـائر بلاد الدنيا بسور لاسـتغنى أهلها بما فيها من غلال وغير ذلك عن سائر البلاد جميعها ".

وللأمانة التاريخية، أرجع ما جاء بفـصل الأحاديث النبوية إلى كتاب الشيخ جلال الدين الأسيوطي المسمَّى" بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"

ثم ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها والمعنى الذي من أجله سُميت الأرض بمصر وما السبب في ذلك ٠

عن المسعودي أن مـصر أخذت اسمهـا من أحد أحفاد آدم عليه السـلام مصر بن مركائيل بن دوائيل بن غرياب أو عرناب، وقـيل سُميت باسم مصرام ابن طقرائوش الجبار بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وذلك بعد الطوفان ٠

ابن عباس يقول " كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد وهم سام وحام ويافث و أرفخشد ثم أن نوحا عليه السلام رغب إلى الله بأن يرزقه الإجابة فى ولده وذريته فصعد إلى جبل عال ونادى أولاده عند السحر وهم نيام فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه سام وابنه أرفخشد فلما حضر بين يديه وضع يمينه على ابنه سام وشماله على ابنه أرفخشد وسأل الله أن يبارك في ابنه سام وأن يجعل من نسله الترك وأن يبارك في أرفخشد وأن يجعل الملك والنبوة في أولاده ثم نادى حام فلم يجبه فقال" اللهم اجعل أولاده أذلة وعبيدا لأخيه سام ".

وكان مصريم بن بيصر بن حام نائماً إلى جانب جده حام فلما سمع دعاء نوح على جده حام فقام مسرعاً وجاء إلى نوح وقال" يا جدي لقد أجبتك وإن لم يجبك جدي فاجعل لي دعوة من دعواتك فوضع نوح يده على رأس مصريم وقال : اللهم إنه أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل منها أفضل بركة وسخر له ولولده "٠

وبالطبع ابن عباس أخذ هذا عن الإسرائيليات والتي قسمت أجناس البشر هكذا إلى سام ونسله من الأبرار السادة، وحام ونسله من العبيد الأنجاس وحتى عندما عدل نوح دعوته فإنه بارك الأرض ونهرها ومنحه حق سكناها ولكنه لازال ابن حام٠

مصريم هذا كما ذكر ابن عبد الحكم هو أبو القبط والذى عَمَّر مصر بعد الطوفان، لذلك سُميت باسمه، وقد كان اسمها جزلة و درسان أي باب الجنة قبل أن تصبح مصراً ٠

مـصريم أبو الـقبط - عن ابن عـبـاس - لما غـرس الأشجـار بمصـر فكانت ثمارها عظيمة جداً بحيث أن الأترجة تشق نصفين ويحمل كل نصف على بعير وكانت الـقثاء فى طول أربـعة عشـر شبـراً (حوالي ٣ مـتر) وكان طـول القرع ثلاثين شـبراً (حـوالي ٦ مـتر) وكـان طول البلحـة الواحدة شـبـراً (عشـرين سنتيمتر) وعرجون الموز يحمل ثلاثمائة موزة وكل موزة منها رطل وكان عنقود العنب إذا قطف من كرمه يحمل على بعير والكمثرى زنة الواحدة منها سبعمائة درهم أما الرمـانة فإذا قـشرت يقـعد على قـشرها ثلاثة أنفـار وكانت البطيـخة الواحدة زنتهـا ثمانون رطلاً وحبة القـمح قدر كلية البقـرة ٠٠ وكل هذا بدعوة آدم عليـه السلام، حـيث دعـا لها بالبـركـة وكذلك نوح عليـه السـلام دعا لهـا بالبركة٠

قال أبو الصلت أمية الأندلسي " كان إقليم مصر متصلاً بالعمارة على شطي النيل كأنهـا مدينة واحـدة مشتـبكة بالأشجار المثـمرة والفـواكه اليانعـة والقرى العامـرة حتى أن المسافر يسـير من ثغر الأسكندرية إلى مـدينة أسوان بلا زاد بل يسير في ظل من الأشجار وقرى عامرة لا يحتاج فيها إلى زاد يحمله "٠

وهكذا اسـتقـر في روع مصـريو ذلك الزمـان أن أرضهم تنتج الخـير لأنهـا مبـاركة منذ زمن أبونا آدم وحتى نهـاية الدنيا وأن هذا جعلهـا شبيـهة الجنة التي خيـرها يكفي سكانها والأغراب الـذين يعشقـونها بمجرد الشـرب من ماء النيل بالإضافة إلى سكان الأقطار المجاورة الذين لهم أيضاً حق فيه ٠

وبالرغم من أنهم من أبناء حام الابن المغضـوب عليه وعلى نسله والمكتوب عليـهم أن يخدمـوا أبناء سام الأتراك المفـضلون، إلا أن الأقبـاط يعيشـون على

أرض مصر ببركة دعاء جدهم نوح لمصريم حفيده وتحت حماية وصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم الدين يصنعون الطعام لكل من يطرق بابهم فيأخذ ما بيدهم ٠

ولكن ترى ماذا يقولون عن الآثار التي حولهم في كل مكان !!

ابن اياس يقول نقلاً عن آخرين: إن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها عشرون بمصر ٠٠ الأهرامات من العجائب تشبه الجبال ولم يحدد أسباب وجودها ٠ يقول بعض الحكماء" ليس من شيء إلا وأنا أرحمه من الدهر إلا الهرمين فإني أرحم الدهر منهما "٠٠ " صنم الهرمين الذي يقال له عند العامة أبو الهول يقال إنه طلسم للرمل لئلا يغلب الرمل على طين بر الجيزة " لهذا " فالصائبة تحج له وتقرب إليه الديوك البيض ويبخرون حوله بالحصى لبان الشرب "٠

يقابل هذا الصنم صنم آخر في بر مصر عند قصر الشمع وكان عظيم الخلقة متناسب الأعضاء وهو من الصوان المانع على هيئة امرأة وفي حجرها مولود من الصوان وكان الناس يسمونه سرية أبو الهول ٠٠٠ وهو طلسم الماء يمنعه عن بر مصر لئلا يهدم أملاكها وكان لهما حكمة " سرية أبو الهول هذا " كسره الملك الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧١١ هجرية، وعمل منه قواعد وأعتاب للجامع الجديد لما بنـــاه " ٠

" بربا سمنود (معبد سمنود) من جملة الأعاجيب ٠٠٠٠ تم تخريبه عند سنة ٣٥٠ هجرية ". " بربا أخميم (معبد أخميم) عجباً من العجائب بما فيه من الصور والعجائب وكان به صور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون

المصري يقرأ ما على حيطان هذه البربا من الحكم والعجائب فأسد أكثرها وسد بابها " ٠

ومنها بربا دندرة (معبد دندرة) فيه ثمانون كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها حتى تنتهي إلى آخرها ثم تكر راجعة إلى موضع بدأت منه "٠

ثم يذكر بعد ذلك منارة الأسكندرية والمسارح الرومانية وعمود السواري والمسلات ويتحدث عن مدينة منف ومدينة الفرما والفيوم والمقياس " حوض مدور من رخام أخضر وعليه كتابة بقلم الطير يركب فيه الواحد من الناس٠٠٠"

ثم يختم هذا " ولو بسطت عجائب مصر كلها لجاء منها عدد كثير لا يُحصى وليس في بلد شيء عجيب إلا وفي مصر مثله أو أعجب منه " ٠

المتتبع لما سرده ابن اياس عن عجائب مصر يجد أنه يرجعها جميعها للسحر أو أنها لها سبب سحري " طلسم "، وفي الوقت نفسه يشير إلى أنه كان هناك بعض الأفراد الذين كان باستطاعتهم قراءة الهيروغليفية " لغة الطير "، ولكن لم يعتني أحد بأن يسجل أو يتعلم أو يفسر لأنها في نظرهم أصنام وطلاسم وعجائب يجب أن لا يقتربوا منها و إلا حدث لهم مكروه ٠ وهكذا كان الخصام بين المصري وتاريخ بلده وآثارها فلا مانع من استخدام أحجارها فى أغراض أخرى أو تدمير تماثيلها أو الحفر بحثاً عن الجواهر والذهب "ظفر بعض عمال الناحية بقطعة زمرد زنتها مائة وخمسون مثقالاً فأخفى أمرها عن الناس فجاءه بعض التجار ودفع له فيها مائة ألف درهم فأبى أن يبيعها بهذا القدر فشاع أمرها بين الناس حتى بلغ الملك الناصر محمد ابن قلاوون فبعث أخذها

غصباً فمات العامل من قهره بعد ثلاثة أيام " ٠

ذكر من ملك الديار المصرية في أول الزمان :

" شيث ابن آدم عليه السلام دخل مصر ونزل بها هو وأولاد أخيه قابيل وكانت مصر تدعى بابلون فسكن شيث فوق الجبل وسكن أولاد أخيه قابيل أسفل الوادي وصاروا يتوارثونها إلى أيام أخنوخ وهو إدريس عليه السلام وهو أول من تكلم في علم الهيئة وعلم النجوم ".

" أول من ملك مصر قبل الطوفان تبليل الألسن وهو من أولاد قابيل وكان عالماً بعلم الطلسمات والكيميات وغير ذلك من العلوم الجليلة واستمر على مصر إلى أن هلك وتولى بعده ابنه نقراوش الجبار وهو الذى بنى مدينة أمسوس وهي أول مدينة بنيت في مصر " وكان جماعة من أولاد قابيل يسكنون في مغائر في الجبل المقطم تجاه طرا واستمروا على ذلك حتى بنى نقراوش هذه المدينة وصارت دار المملكة ثم تزايدت العمائر وبنيت المدن حتى قيل : كان في مدينة أمسوس إلى الغرب أربعمائة مدينة محكمة البناء يسكنها أمم جبابرة وذلك قبل الطوفان " ٠

مدينة أمسوس " كان بها طائر من نحاس على أسطوانة من رخام أخضر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين فيستدلون من صفيره على ما يكون من الحوادث في ذلك اليوم " ٠٠٠ وكان في وسط المدينة صنمان إذا دخل سارق " لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما فإذا سلك بينهما أطبقا عليه " " وعمل على جوانب هذه المدينة أصناماً من نحاس أصفر وهي مجوفة وملأها كبريتاً ووكل بها روحانية النار فكانت إذا قصدهم عدو أرسلت

تلك الأصنام من أفواهها ناراً أحرقته من وقته ".

وهذه الآثار أزالها الطوفان بعد ذلك كما ذكر ابن اياس ٠

عندما مات نقراوش " خلف من أولاده نقراش ومصريم وعيقام ٠٠ نقراش كان عـالماً بعلم الكهانة والسحـر والطلسمات وكـانت الشياطين تحـمله بسريره على الأعناق وتطوف به سـائر الإقليم.. أمـا مصـريم فقـد بنى مـدينة مصـر.. وعيـقام كـان عالماً بـعلم الكهانة والسـحر وإليـه تعزى كـتب القبط التـي فيـها تواريخهم وما يحدث في الدنيا إلـى آخر الزمان " " إدريس عليه السلام رفع في أيامـه إلى السمـاء "،" لما مات تولى بعـده ابنه عرياق "صنع شـجرة من نـحاس أصفر تخطف الظالم بين فروعها فلا تفلته حتى يقر بظلمـــــه ٠

عقب عرياق جاء لوجيم ثم خصليم فقـفال فتدرسان ثم سرقان ثم شلهوق وسورتيد " هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر قبل الطوفان بثلاثمائة سنة "

" وأودع فيـها أمواله وتحفـه وكتبـه النفيسة في العـلوم الجليلة "،" ووكل بها روحانيـة تحفظ مـا فيهـا من الأموال إلى آخـر الزمان ". ابن طولون حـاول فتح الهرم ولكنه فشل ٠

ولقد ذكر ابن اياس أن كل هؤلاء الملوك كانوا سحرة وعلماء في الطلاسم، ولكل منهم معجزة أو عجيبة من العجائب التي أوردها بالتفصيل ٠

أما سورتيد فقد عاش مائتي سنة ومات ليتولى ابنه هوجيب الذي بنى أهرام دهشور، بـعده جاء ابنـه منقاوس ثم افـرؤس ثم أفالينوس ثم ابن عـمه فـرعان الذى وقع في أيامه الطوفـان فهلك فيـه وهو سكران " وهلك كل من على وجه الأرض من آدمي ووحش وطير " ٠

بعـد الطوفان قـسم نوح الأرض بين أبنائه فكان من نصيب بـيصر بـن حام أرض مصـر و"هو الذى بنى مدينة منف ذات السـبعين باباً المصـفحـة بالنحاس الأصفر والبـيوت المصنوعة من الرخام الأخضر وأنهـار تجري من أعلى سورها محـكمة من مـاء النيل في درج كلما وصل إلى درجـة امتـلأت الأخرى حـتى يصـعد الماء إلى أعلـى السور فـيدخـل بيوت المدينة عن آخـرهم ثم يخـرج من مواضع ويسقي البساتين والقرى ويرجع إلى البحر " ٠

وقد سـكنها بعـد ذلك فرعـون موسى عليـه السلام وهو القـائل " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي " ٠٠ بخت النصر عندما جاء إلى مصر أخربهـا عن آخرها وإن بقى بيت منهـا " نقله الأتابكي شيخ العـمري سنة ٧٥٠ هجرية وجعله على باب خانقاه بالصليبة " ٠

بيصـر ابن حام عـاش سبعـمائة سنة في منف وهـو أبو القبط وإليه تـنتسب وكان له خمسة من الأولاد مصريم وقفط وأشمون وأتريب وصا الذين اقتسموا الأرض بعد مـوته وعمـر كل منهم مدينة سُـميت باسـمه ثم تولوا حكم مـصر واحداً بعد الآخر بعد وفاة صا آخرهم خلفه ابنه تدراس وهو أول من جبا خراج مصر فكان ألف ألف وخمسين ألف ألف دينار (واحد وخمسين مليون دينار) جاء بعده ماليق الذي غزا بلاد البربر فوجـد جماعة من أهلها وجوههم كوجوه الإنسان وأرجلهم مثل حوافر البقر وعلى أبدانهم شعر كثيف كشعر الماعز ولهم أنياب بارزة كأنياب السباع وكانوا سحرة أثروا عليه بحيث عندما عاد إلى مصر " كثـر بها الثعابين والعـقارب والضفـادع وفاض النيل في غير أوانه حـتى غرق القرى " بعده جاء ابنه خرثناه وكان يجـلس فوق السحاب ثم ابنه عديم " عمل

قدحاً من زجاج أخضر إذا صب فيه ماء أو غيره وشرب منه جميع من في المدينة لا ينقص منه شيئاً ولو أقام دهراً طويلاً " ٠ ثم منقاش وقرسون عندما ماتا تولت ابنته نونية الكاهنة وهي أول امرأة ملكت أرض مصر فلما ملكت أظهرت من سحرها العجائب ٠٠ تولت بعدها ابنة عمها زلقة ابنة مأموم بن ماليا فعمرت في مصر دهراً طويلاً ثم وثب عليها مرقونس ونزعها من الملك واستمر حتى هلك فأتى إلى مصر العمالقة وغزو أهلها وملكوها فحاربهم الوليد ابن روما وكان شجاعاً بطلاً فقاتل العماليق أشد القتال حتى كسرهم ورحلوا عن مصر فتولى هو وأقام مائة سنة حتى أنه طغى وتجبر فسلط الله عليه سبعاً افترسه " ٠

وهكذا كان كل ملوك مصر، في رأي ابن اياس ومن أخذ عنهم، سحرة وكهان يصنعون أشياء عجيبة لا يقدر عليها البشر ويعمرون لسنوات طويلة خلافاً للمتعارف عليه من أعمار الناس ٠

ذكر من ملك مصر من الفراعنة :

قال ابن عبد الحكم " الفراعنة الذين ملكوا مصر خمسة وهم طوطيس ابن ماليا فرعون إبراهيم والريان ابن الوليد فرعون يوسف والوليد بن مصعب فرعون موسى ودارم ابن الريان وآخر ما يحضرني اسمه الآن ٠

أما " طوطيس فرعون إبراهيم فإنه كان مغرماً بحب النساء والحسان وكان يأخذ نساء الناس وبناتهم غصباً وكان له في الطرقات حراس بسبب ذلك "٠٠ وله قصة مع إبراهيم عليه السلام "فلقد سأله عن زوجته سارة فادعى أنها أخته فطلب الزواج منها ٠٠ ولكن إبراهيم قال إنها متزوجة فسجنها الفرعون ٠٠

عندما حاول لمسها شلت يده وعندما حاول ثانياً غاصت به الأرض فطلب منها وقف سحرها ولكنها قالت إنه فعل إبراهيم خليل الله فرد له سارة ووهب له جارية جميلة تسمى هاجر وكان لها من العمر أربعة عشر سنة فجاءه منها ولده إسماعيل وقيل إن الملك طوطيس أسلم على يد إبراهيم "٠

فرعون يوسف الريان ابن الوليد ابن أرسلاوس كان حسن السيرة عادل في الرعية وهو الذي بنى قصر الشمع القديم ثم يروي ابن اياس القصة المعروفة ويضيف أن يوسف بنى " مدينة الفيوم فدبرها بالوحي من جبريل عليه السلام حتى خرج عنها الماء " استمر الريان على ملكه لمصر حتى مات في أيام يوسف " وقيل إنه أسلم على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ".

دارم ابن الريان تولى بعد وفاة والده " وكان جباراً عنيداً فأظهر عبادة الأصنام ٠٠٠" " ومن أعماله أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار وعمل قدراً يطبخ فيه من غير نار وعمل سكيناً منصوباً في وسط منف ومن شأنها تأتي البهائم إليها فتذبح نفسها بها من غير يد وعمل ماء يستحيل نار ونار يستحيل ماء " توفي يوسف عليه السلام في أيامه ودفن في الفيوم ٠ " وهو في صندوق رخام مرمر في وسط البحر نحو ثلماية سنة حتى نقله موسى عليه السلام إلى بيت المقدس ".

ملحوظة : موسى عليه السلام لم يدخل القدس وظل في التيه حتى مات .

" بعد درام تولى دريموس، اسمه عند القبط ميلاطيس، وكان عالماً بعلوم السحر والكهانة ٠

الفرعون الخامس فرعون موسى عليه السلام كان الوليد ابن مصعب ٠

قال وهب ابن منبه " كان أصل فرعون من مدينة بلخ وقيل من أرض حوران من نواحي الشـام وكان عطاراً فـتـجمـد عليه ديـن فخـرج هارباً من أصحـاب الديون حـتى دخل مديـنة منف وكانت يومـئـذ دار المملكة وكـان فرعـون بشع المنظر أعور في عينه اليسرى وكان طول لحيته سبعة أشبار بحيث كان يتعثر فيها وكان قصير القامة يـعرج برجليه عرجاً فاحشاً وكان بجبهتـه شامة سوداء كبيرة فلما دخل منف وقـف على خباز يقـال له هامان وكان هامـان كثيـر القراءة في الملاحم فلما وقـف عليه فرعـون رأى به علامات تدل على مـا عنده من الملاحم بأن من يكون به هذه لابد أن يملك مصر ·

فقال له هامان : من أى أرض أقبلت ؟ فقال فرعون : من بلخ، فقال هامان : هل لك من صحبتي ؟ فقال فرعون : إن شئت كنت كذلك، فأضافه هامان تلك الليلة ·

ثم أن فـرعـون اشتـرى حـمل بطيخ وجـاء به إلى باب المدينة فلمـا أراد أن يدخل من باب المدينة نهبـوه منه جماعـة من البوابين فلم يبقى مـعه غير بطيـخة واحدة فباعها بقدر ما اشترى الحمل ثم قال للناس : أما في هذه المدينة من ينظر في مصـالح الرعيـة ؟ فقـيل له إن ملك هذه المدينة مشـغول بلذاته وفـوض أمر مملكته لوزيره فهو لا ينظر في مصالح الناس فـقال فرعون في نفسه.. هذا وقت انتهاز الفرصة ·

ثم خـرج إلى المقـابر وصار لا يمكـن الناس أن يدفنوا مـوتاهم إلا بخـمسـة دنانير على كل رأس.

فقدر أن بنت الملك ماتت فلما أرادوا دفنها فقال : هاتوا خمسة دنانير العادة

فقالوا له : ويحك هذه بنت الملك فقال: ما آخذ عليها إلا عشرة دنانير فما مكنهم من دفنها حتى أخذ عليها عشرة دنانير فلما بلغ الملك خبره قال من يكون هذا الرجل ؟ فقالوا له الذى عملته عامل للأموات فأنكر الملك ذلك وأرسل خلف فرعون فلما حضر بين يديه قال له : ومن عملك عامل للأموات٠ فأخبره بما جرى له في حمل البطيخ ثم قال له : إنما عملت عامل الأموات حتى يصل إليك خبري وتستيقظ لنفسك وتنظر في مصالح رعيتك وقد حفظت لك في هذه المدة مالاً لا يحصى ٠

فلما سمع الملك كلامه أفصل وزيره الذى يغشه واستقر به وزيراً فلما تولى صار في الناس سيرة حسنة وعدل في الناس وكان يقضي بالحق ولو كان على نفسه فأحبته الرعية فلما مات الملك فاختاروه الرعية أن يكون ملكاً عليهم فولوه الملك بمدينة منف فأظهر العدل ونظر في أحوال المملكة فأقام جسورها وبنى قناطرها وقطع جزائرها وحفر خلجانها وكان بها سبعة خلجان جارية شتاءً وصيفاً وكان يرسل مائة ألف وعشرون ألف رجل ومعهم الطواري والمساحي بسبب قلع الغضاب والحلفا وكل نبات يضر بالأرض فيسيرون قبلي وبحري ولهم رواتب معلومة بسبب ذلك ٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠ فلما دبر أراضى مصر هذا التدبير استقامت أحوال الديار المصرية وسار خراجها يومئذ مائة ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني وكان يومئذ ثلاثة مثاقيل بالمثاقيل الآن فيكون ذلك ثلثماية ألف ألف دينار وسبعين ألف ألف دينار (٣٧٠ مليون دينار) فإذا تكامل جبى الخراج فيأخذ فرعون في ذلك الربع لنفسه والربع الثاني لجنده والربع الثالث لمصالح القرى لما تحتاج إليه من حفر الخلجان وبناء القناطر وإصلاح ما فسد من

الجسـور وغيـر ذلك والربع الرابع يدفن في الأرض بسبب السنـين المجدبة وهي كنوز فرعون التي تتحدث الناس بها إلى الآن ٠

ولم يزل فرعـون على ما ذكرناه قـائماً على ملكه بمدينة منف حـتى انقرض من أيامه ثلاثة قرون من العالم وهو باق في حاله ٠

قال وهب ابن المنبـه : عاش فرعون أربعـمائة سنة وهو مخول في النـعمة لا يرى ما يكره في نفـسه ولا حم في جسـده ولا دخل عليه سـوء فعند ذلك كلل لحيتـه باللؤلؤ والجواهر وطغى وتجبر وادعى الربوبيـة من دون الله تعالى فأرسل الله إليه مـوسى عليه السـلام يدعوه للإيمان فلم يؤمن فأوحى الـله تعالى لموسى أن يخرج ببنـي إسرائيل إلى بحر القـرم ٠٠٠ لما طغى فرعـون أتاه جبـريل عليه السلام في صفـة رجل مستفتى فقـال لفرعون : ما تقول في رجل اشتـرى عبداً ورباه صغيراً فلما كبر عصى على مولاه وقال لست بعبد لك وادعى مقام سيده فمـا يكون جزاء ذلك العبـد ؟ فقال فرعـون : جزاءه التغـريق في البحر، فـقال جبريل : أعطني خطك بذلك ٠

فرعـون خرج من أثر مـوسى وهو في عسـاكر لا تحصـى فلما انغلق البـحر بموسى وعدى ببني إسرائيل وتبعه فرعون ومن مـعه من العساكر فانطبق عليهم البحر فـغرق فرعون هو وعساكـره في بركة الغرندل وأتاه جبريل بخطه فـعرفه وقضى على نفسه فأراد أن يقول آمنـت برب موسى وهارون فأخذ جبريل خطه وحشاه في فمه حتى غرق ".

لو عـاش السـيـد وهب ابن منبـه هذا في أيامنا، لأصـبح مـخـرجـاً لأفـلام ميلودراما هابطة.. أي فكر مريض هذا الذي زوَّر هذه القصة وحشاها بتفاصيل

لا تزيد على أن تكون أحلام يقظة لعبد يهودي في مواجهة سيده الفرعون.. الغريب أن تتقبل الصفوة المثقفة في تلك الأيام مثل هذا الحشو المخل. وهل لو لم يستطع شامبليون معرفة وتفسير لغة الطيور.. كنا بدورنا سنصدق تلك الإسرائيليات الحاقدة على مصر والمصريين !

" لما غرق فرعون وقومه صارت مصر ليس بها أحد من أشراف أهلها سوى العبيد والأجراء، فكانت أعيان النساء من القبط تعتق عبدها وتتزوج به أو تتزوج بأجيرها وكن يشترطن عليهم بأن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن وقد صار ذلك سنة عند القبط إلى اليوم لا يفعلون شيئاً من الأشياء حتى تستأذن نساؤهم.

ثم أن النساء أجمعن رأيهن على أن يولين عليهن امرأة يقال لها **دلوكة ابنة ريا** وكانت ذات عقل ومعرفة وكان لها من العمر نحو مائة سنة فملكوها عليهم فبنت على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش وحاشت بها قرى مصر وضياعها وجعلت على تلك الحوائط أجراساً من النحاس فإذا أتاهم من يخافونه حرك الأجراس الموكلون بها من كل جانب فيسمعها من بالمدينة فيستعدون لذلك وآثار هذا الحائط باق إلى الآن ببلاد الصعيد وتسمى حائط العجوز ".

قال ابن عبد الحكم " لما ملكت دلوكة مصر أرسلت خلف امرأة ساحرة من أنصنا يقال لها تدوره وكانت مشهورة بالسحر، فقالت لها دلوكة إنا قد احتجنا إلى شيء من سحرك يمنع عنا من يقصد بلادنا بسوء، فعملت تلك المرأة بربأ من حجر الصوان (معبد) في وسط مدينة منف وجعلت لها أربعة أبواب إلى

الجـهـات الأربعة ونقـشت على كل بـاب منها صـور الرجـال والخـيل و الإبل والحمير والسفن وقالت لدلوكـة: قد عملت لكم عملاً تهلكون به من أراد لكم سوء من بر أو بحر، فكان إذا قصد إليهم أحد من سوء وعجزوا عن قتاله دخلوا إلى تلك الصـور التي في البـربا وقطعوا رؤوس تلك الصـور أو فـقئـوا أعينهـا فمهما فعلوا في تلك الصور فيـؤثر مثل ذلك في معسكر العدو الذي يقصدهم فـامتنعـت عنه الملوك لأجل ذلك، فـأقامت دلوكـة على ملك مـصـر نحو مـائة وثلاثين سنة ولم تزل مصر ممتنعة من العدو في مدة حياتها ".

من الواضح أن كـاتب هذه الأسـاطير حـار فـيمـا وجـده حولـه من معـابد ونقـوش وتماثيل ولم يجـد لهـا وظيفـة أو نفع إلا أن تكون سـحـراً أو مصـدراً لسحر، وهو دائمـاً مخصص لحفظ مصر من الرمل والميـاه والأعداء والصواعق والزلازل وكافة الملمات، فهو لذلك نسج مـثل تلك الحواديت وصدقها مصريو ذلك الزمن بعد أن ابتعـدوا عن جذورهم وفقدوا الصلة بلغـتهم وتاريخهم ٠٠ هذا جانب ولكن هناك جوانـب أخرى فقد يكون لتلك الأساطيـر أساس ما فى الثقافة المصرية القديمة.. مـثال ذلك، النبى إدريس الأسود الذي رفع إلى السماء إنه يطابـق أوزيريس ويقـتـرب منه في الاسـم.. الأمـر يحـتـاج إلى فـحص أنثربولوجى أكـثر دقة، ودراسات أكـثر تخصصـاً لفك تلك الطلاسم المصرية.. ترى من لديه الشجاعة لفعل هذا !

" لم تزل مصر ممتنعة من العدو ومن بعد غرق فرعون، ستمائة سنة بما دبرته دلوكة من السحر العـظيم الذي كان بالبربا. فلما خربت البربا طمع فـيها العدو وزحف بخت نصر البابلي على البلاد وأخرب بيت المقدس وسبى بني إسرائيل

ثم دخل إلى مصـر وقتل صاحب مـصر وسبى أهل مـصر وقتل من أهل مـصر نحو سـبعين ألفـاً من بني إسـرائيل وغيـرها وأخرب ما كـان بمصر من الـبرابي والحكم التي كانت بهـا والطلسمات، ونهب الأمـوال، وحمل ذلك جميـعاً إلى أرض بابل ثم رحل عن مصر بعد أن أخربها فأقامت مصر بعد ذلك أربعين سنة خرابـاً ليس بها سـاكن و لا متـحرك فكان النيل إذا زاد يفـرش على الأرض ثم يهبط و لا يـنتفع به في أمر الـزرع وهذه أول شدة نزلت بأرض مـصر، ولم تزل مصر من بعد ذلك مقهورة من العدو ٠

ثم بعد ذلـك تراجع إلى مصر جـماعـة من القبط وعـمروا ما أخـربه بخت النصـر منهـا وتراميت أحـوالهـا قليلاً قليـلاً، وآخـر من حكم مـصر من القـبط المقوقس وقد أقـام في ملكه إحدى وثلاثين سنة حتى فُتـحت على يد عمرو ابن العاص " ٠

قارىء بدائع الزهور في القرن الخامس عشر الميلادي وما قبله، وفي الأغلب ما بعـده حتى تم تفسـير معنى لغة الـطيور ومعرفـة جانب من حقـائق التاريخ، سوف يؤمن بأن مـصر جنة الله ذات الخير الوفـير إنما جاءتها هذه النعـمة لأنها أرض مباركـة من الله سبحـانه وتعالى ومن أنبياءه عليـهم السلام آدم وإبراهيم ويوسف ونوح الذى أهداها لابن ابنه بيصر ابن حام و لأبنائه من بعده ٠

وأن ملوك مصـر على مر العصور كـانوا إما سحرة أو يسـتخدمون السـحر للمحافظة على عـروشهم لأعمار تمتد لمائة ومائتين وربما ثلاثمـائة عام، كما هو حـال فـرعـون مـوسى، وأن المعـابد والتـمـاثيـل المنتـشـرة حـولهم مـا هي إلا طلسمـات.. لكل طلسم هدف سحـري وأهمها المعـبد الذي بنتـه الملكة دلوكة

فحمى مصـر لمئات السنين وعندما خربته الأيام مـسح الفرس المصريين من على الأرض فاندثر ذلك الجنس وأن مصر أرضاً مرحـبة بالأجانب، فالأجنبى بمجرد شربه من ماء النيل يصبح واحداً منهم والأجنبي في الأغـلب أكثر عقلاً وتدبيراً من السكان الأصليين، وأن أغلب الفـترات التي عـاشتهـا مصـر في أمن كانت بسبب أن أجنبياً قد حكمها فأحسن استخدام بركتها ٠

أين دور المصريين؟! أين حـضارتهم؟! أين قوانيـنهم؟! أين ديانتهم؟! ٠٠ لاوجود لهذا الشعب في عرف حكماء ذلك الزمان وكأن الأرض تخرج خيرها بمجرد أن يفيض النيل ويمضي.

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ

تأليف العلامة ابن الحسن ابن المسعودي الشافعي المتوفي في ٣٤٦ هجرية.

نقلاً عن المسـعودي يورد ابن الحسن الشـافعي أن مصر " ثلاثة أشـهر لؤلؤة بيضـاء وثلاثة أشهـر مسكة سـوداء وثلاثة أشهـر زمردة خـضراء وثلاثة أشـهر سبيكة حمراء ٠٠ فأما اللؤلؤة البيـضاء فإن مصر في شهر أبيب (تموز- يوليو) ومسرى (آب - أغسطس) و توت (أيلول - سبتمبر) يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها علـى روابي أو تلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبـعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق ٠٠ وأما المسكة السوداء فإن في شـهر بابة (تشرين الأول - أكتـوبر) وهاتور (تشرين ثاني - نوفمـبر) وكيهك (كانون أول- ديسمبر) ينكشف الماء عنهـا وينضب عن أرضها فتصير أرضاً سـوداء وفيهـا تقع الزراعات وللأرض روائح تشبـه روائح المسك.. وأما

الزمردة الخضـراء فإن فى شهر طوبة (كـانون ثان - يناير) و أمشيـر (شباط - فبراير) وبرمـهات (آذار -مارس) تلمع ويكثر عـشبها ونباتـها فتصيـر كالزمردة الخضراء.. وأما السبيكة الحمراء فإن فى شهر برمودة (نيسان - أبريل) وبشنس (آيار - مايو) وبؤنة (حـزيران - يونيو) يبـيض الزرع فيه ويـتورد العشب فـهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة "٠

ثم أورد وصفاً آخر " نيلها عجب وأرضـها ذهب وخيرها جلب وملكها لمن سلب ومـالهـا رغب ومن أهلـهـا صخـب وطاعـتـهم رهب وسـلامـهم نعب وحـروبهم حـرب وهي لمن غلب ونهـرها النيل من سـادات الأنهـار وأشـراف البحار لأنه يخرج من الجنة "٠

كم هى مغرية مصر للوافدين من الأطراف الصحراوية ٠

نيل مصر هذا وفـيضانه احتارت فـيه البرية، ولقد ذكر ابن الحـسن الشافعي كل ما قـيل حول هذا الموضوع وليس مـنها هطول الأمطار في الحبـشة. واعتـبر زيادته ونقصه مؤشراً عما سيحدث للبلاد من رخاء أو قحط، لذلك فعلى طول العصور والممالك احتفل به المصريون كـافَّةً " وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حـضر النيل في تـلك الليلة مائـة ألف من الناس المسلمين والنصـارى منهم في الزوارق ومنهم فـي الدور الدانيـة من النيـل ومنهم على الشطوط لا يـتناكـرون الحضور ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكل والمشارب والملابس والآت الذهب والفـضة والجواهر والملاهي والعـزف والقصف وهي أحـسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً " ٠

الأهرامات أيضاً حارت فيها الأقلام، وهكذا يرى ابن الحسن الشافعي أن: «أهل الخبرة يخبرون أن يوسف صلى الله عليه وسلم حين بنى الأهرام اتخذها مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصه"٠

ولكن قيل أيضاً إن رجلاً بأعلى بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الأنباط ممن يشار إليه بالعلم " قد استدعاه أحمد ابن طولون وسأله عدة أسئلة منها سؤال عن بناء الهرم فقال " إنها قبور الملوك كان الملك منهم إذا مات وضع في حوض حجارة يسمى الجرن (تابوت) أطبق عليه ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريقاً في الأرض ٠٠٠٠ فقيل له كيف بنيت الأهرام المملسة وعلى أي شيء كانوا يصعدون ويبنون وعلى أي شيء كانوا يحملون تلك الأحجار العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ٠٠٠ فقال كان القوم يبنون الهرم مدرجاً ذا مرق كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل فهذه كانت حيلتهم وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ٠٠٠ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ، فقال دثر الحكماء أهل العصر الذين كان هذا قلمهم وتداول أرض مصر الأمم فغلب على أهلها القلم الرومي كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول فذهب عنهم كتابة آبائهم ٠

أول من سكن مصر كما أورد ابن الحسن الشافعي بيصر بن حام ابن نوح

الذي انفصل عن أرض بابل ودخل مصر مع أبنائه الأربعة " مصر بن بيصر وقوف بن بيصر وساح وباح " " نزلوا في موقع يقال له منف وكان عددهم ثلاثين فسُميت بهم " " وكان بيصر بن حام قد كبر سنه فأوصى إلى ابنه الأكبر وهو مصر واجتمع الناس إليه ٠٠٠ وأخصبت البلاد فتملك عليهم وملك من حد رفح من أرض فلسطين وقيل العريش ٠٠٠" " مصر كان له أربع أبناء قبط و أشمون و أتريب و صا، فقسم مصر بين أولاده أرباعاً " " ومن قبط جاء أقباط مصر فقد كثر أبناء قبط فغلبوا على سائر الأرض ودخل غيرهم في أنسبائهم وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح ".

تسلسل ملوك مصر على النحو الذي وجدناه في الكتاب السابق عرضه لابن اياس مع فارق أن فرعون موسى الوليد ابن مصعب " قد تنوزع فيه فمن الناس من رأى أنه من العماليق ومنهم من رأى أنه من لخمة في بلاد الشام ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر ".

الشافعي ذكر بعد ذلك الملكة دلوكة وحائطها الذى كان موجوداً حتى كتابة النص عام ٣٣٢ هجرية، كذلك البرابي السحرية " التي جمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان وأسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان من الحادية والبادية وجعلت ذلك في أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية وكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصور التي في البرابي فتعور ما في ذلك الجيش ٠٠٠٠٠ "،" وقد تكلم الناس فيما سلف وخلف في هذه الخواص وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر وهذا الخبر من فعل العجوز عند المصريين مستفيض لا يشكون فيه والبرابي بمصر من

صعيدها وغيره باقية إلى هذا الوقت، ففيها أنوع الصور مما إذا صورت في بعض الأشياء أحدثت أفعالاً على حسب ما رسمت له ووضعت من أجله على حسب قولهم في الطباع التام والله أعلـــــم " ٠

أما ذو النون الذي ذكر سلفاً فإن ابن الحسن الشافعي يكتب عنه " أخبرني غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الأخميمي الزاهد وكان حكيماً وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها وامتحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته فإذا هو (احذر العبيد المعتقين والأحداث المقربين والجند المتعبدين والنبط المستعربين) قال ورأيت فى بعضها كتباً فإذا فيه (يقدر المقدور والقضاء يضحك) وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها في ذلك القلم فوجدها (تدبر بالنجوم ولست تدري و رب النجم يفعل ما يريد).. وكانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر في أحكام النجوم مواظبين على معرفة أسرار الطبيعة وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفاناً سيكون ولم يقطع بأن ذلك الطوفان (هل هو نار) تأتي على الأرض فتحرق ما عليها أو ماء فيغرقها أو سيف يبيد أهلها فخافت دثور العلوم وفنائها بفناء أهلها فاتخذت هذه البرابي ورسمت علومها من الصور والتماثيل والكتابة وجعلت بنيانها نوعين طيناً وحجراً " فإذا ما كان الطوفان ناراً تصلب الطين. أما إذا كان ماءً فالأحجار سوف تصمد له وهكذا يحافظون على علومهم ٠

لقد حار ابن الحسن الشافعي فيما حوله من معابد وأهرامات وصور ورسومات، وفي هؤلاء البشر الذين تصورهم تلك الصور أو تجسدهم تلك

التماثيل.. " لا يدرى من أي الأمم هم فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم و لا المسلمون يدرون من هم ولا التاريخ ينبىء عن حالهم عليهم أثوابهم وكثيراً ما يوجد في تلك الروابي والجبال من حليهم ".. ألهذه الدرجة ابتعد المصريون عن تاريخهم حتى أصبحوا غرباء عن الأجداد وحضارة أسلافهم ٠ !

الكتابة الهيروغليفية أيضاً حيَّرت ابن الحسن الشافعي " عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السابقة والممالك الدائرة لا يدري ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها ".. " والغرض مما وصفنا عليها من الرسوم ما ذكرنا أن ذلك علوم وخواص وسحر وأصرار (أسرار) للطبيعة وأن من تلك الكتابة مكتوب (إنا بنيناها فمن يدعي موازاتنا - مساواتنا - في الملك وبلوغنا في القدرة وانتهائنا من السلطان فليهدمها وليزل رسمها فإن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف). وقد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع في هدم بعضها فإذا خراج مصر وغيرها لا يفي بنفقات قلعها وهي من الحجر والرخام " ترى هل ما أشيع بأنها أعمال سحرية كان سبباً في حفظها أم لكونها بنيت من الأحجار أبقاها !٠

كتب ابن الحسن الشافعي " قد رأيت بمصر حية مصورة من حديد أو نحاس توضع على شيء ويدنى منها حجر المغناطيس فيحدث فيها حركة تباعد منه. وحجر المغناطيس إذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله فى الحديد وإذا غسل بشيء من الخل أو ناله شيء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول في جذب الحديد".

قال المسعودي " والذي اتفقت عليه أهل التواريخ مع تباين ما فيها أن عدة ملوك مصر من الفراعنة وغيرها اثنان وثلاثون فرعوناً ومن ملوك بابل ممن تملك

على مصر خمسة ومن ملوك بابل وهم العماليق الذين ظهروا إليها من بلاد الشام أربعة ومن الروم سبعة ومن اليونانيين عشرة وملكها أناس من الفرس وكان مدة من ملك مصر من الفراعنة والروم والعماليق واليونانيين ألف وثلاثمائة سنة ".

ماذا فعل العرب في آثار المصريين " فأذن لهم في حفرة وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجه فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج و أقباء وحجارة مجوفة من صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء والصور المختلفة منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروز والزبرجد ومنها ما هو ذهب وفضة فكسروا بعضها فوجدوا في أجوافها رمماً بالية وأجساماً فانية مكتوب عليها بقلم زعم قوم من ذوي الدراية أن ذلك القلم من حين فقد من أرض مصر أربعة آلاف سنة "٠

قارىء ابن الحسن الشافعي في زمن مبكر عن ابن اياس بحوالي ستة قرون كان بإمكانه التعرف على معلومات أقرب للحقيقة من تلك التي تحولت في زمن تال إلى قصص خرافية طمست بصيص الصدق الذي قدمه ابن الحسن الشافعي واستقاه من معايشة أقرب زمنياً للمصريين القدماء. وذو النون المصري أو ذلك الرجل الذي حاوره ابن طولون كانا على دراية باللغة المصرية القديمة، وقدم أحدهما تفسيرات أقرب ما يمكن لوظيفة الأهرامات من حيث أنها مقابر للفراعنة، كذلك ربط بشكل صحيح علاقة اللغة القبطية بالمصرية القديمة وكيف أنها استعارت الأحرف اليونانية لتكتب بها بدلاً من الأحرف الديموطيقية ٠

لكن لا تزال تطل من كتابات ابن الحسن الشافعي حيرة تعليل ظواهر عديدة مثل فيضان النيل أو وظيفة المعابد التي سماها برابي وأرجع لها أسباباً سحرية أو من هم هؤلاء البشر الذين وجدت بمقابرهم تماثيل وحلى وجواهر وذهب، فلجأ إلى المطروح في الساحة من أفكار وكتابات الإسرائيلية والتي تتصل منها بتواريخ الملوك خاصة تلك الملكة المزعومة دلوكة وطريقة حمايتها لحدود بلدها من المغيرين، وعندما يقع في الحيرة يشركنا معه متسائلاً إن هؤلاء ليسوا باليهود ولا بالنصارى ولا المسلمين يدرون من هم ؛ فأصبح هؤلاء في نظره ونظر المماليك والعربان والقبط من الأمم المنقرضة مثل ياجوج وماجوج. ترى لو لم يفك شامبليون غموض الهيروغليفية ولو لم يبذل علماء الآثار من كل صوب جهوداً علمية لسبر غور تاريخ مصر.. كيف كنا سنرى الأجداد!!!

٣- فتوح مصر و أخبارها

تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم

عاش ابن عبد الحكم في الفترة ما بين ١٨٧ هجرية إلى ٢٥٧ هجرية، أي كان الأكثر قرباً لقدماء المصريين من ابن الحسن الشافعي الذي جاء بعده بقرن من الزمان أو ابن اياس الذي جاء بعدهما بستة قرون وكان من المتوقع أن يكون أكثر واقعية عند تعامله مع التاريخ المصرى. ولكن ابن عبد الحكم لم يكن له دأب الشافعي من حيث البحث عن شهود معاصرين له قد يكونوا على درجة من العلم بالتاريخ المصري - على العكس عندما أرخ لفتح مصر اعتمد على كتابات قديمة سابقة له تأثرت بما يُسمَّى بالإسرائيليات وهى القصص والروايات

التى أكمل بهـا يهود ذلك الزمن ما جاء من القـصص الاسلامية المخـتصرة عن أنبياء الزمن السابق فجاءت تلك التفاصـيل لتظهر مدى حقد اليهود على مصر والمصريين وما يضمرونه للحط من قدر الحضارة المندثرة ٠

في مواجهـة موسى لسحرة فرعـون لدينا الحدوتة الآتية " اثنى عشـر ساحراً رؤساء تحت يدي كل منهم عشرون عـريفاً تحت يدي كل عريف منهم ألف من السحـرة فكان جميع السـحرة مائتي ألف ألف و أربعين ألف واثنين وخـمسين إنساناً (٢٤٠٠٥٢ سـاحر) بالرؤساء والعرفـاء، فلما عاينوا مـا عاينوا أيقنوا أن ذلك من السمـاء وأن السحر لا يقـوم لأمر الله فـخر الرؤساء الاثنى عـشر عند ذلك سجدا فأتبعهم العرفاء و أتبع العرفاء من بقى وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.. فكانوا من أصحـاب موسى صلوات الله عليه ولم يفتن منهم أحداً مع من افتتن من بني اسرائيل في عبادة العجل " ٠

القارىء لما أورده عبد الرحمن ابن عبـد الحكم سوف يتخيل أن سكان مصر كانوا جـميعاً سـحرة بحيث يستطـيع فرعون حشـد ربع مليون ساحر لمواجـهة موسى فيسحقهم سحقاً، ولـكنه كان وسيلتهم لتغريب مصريي ذلك الزمان عن أجدادهم وخـلق هوة تبعـد بينهم متـسترين برسـل وأنبياء يحـترمـهم ويجلهم الشعب المصرى مسلماً كان أو قبطياً٠

يورد ابن عبد الحكم بعـد ذلك ما سبق عرضه عن نـوح عليه السلام و أبنائه من سامين وحـامين وبيصر ابن حام والد مـصريم أول من ملك مصر"فبـمصر ابن بيصر سُمـيت مصر مصرا فحاز له ولولده مـا بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولاً ومن برقة الى أيلة عرضاً ٠

وهو يقص ما حدث بين النبى ابراهيم وفرعون مصر ٠

" كان حُسن سارة من حسن حواء فأمر بها (أي فرعون) فأُدخلت عليه وسأل ابراهيم قال له ما هذه المرأة ؟ قال أختى فَهَمَّ الملك بها فأيبس الله يديه ورجليه فقال لإبراهيم هذا عملك فادع الله لي فا والله لا أسوؤك فيها فدعى الله له فأطلق الله يديه ورجليه وأعطاهما غنماً وبقراً وقال (لاحظ ما يلي) ما ينبغي لهذه (أي سارة) أن تخدم نفسها فوهب لها هاجر " و الإشارة هنا واضحة لا تحتاج لتعليق فيهود ذلك الزمان حاولوا بكل الطرق أن يؤكدوا تفوقهم الدائم على المصريين من خلال القص المقدس فوالد المصريين حام وأبناؤه خدام أبناء سام والآن هاجر المصرية خادمة سارة اليهودية وموسى اليهودى يتغلب على ربع مليون ساحر مصرى، ولنتابع مغامرات تفوق اليهود في مصر من خلال كتابات ابن عبد الحكم ٠" ثم توفيت خروبة ابنة طوطيس فاستخلفت ابنة عمها زلفة ابنة ماموم بن مالية فعمرت دهراً طويلاً وكثروا ونموا وملأوا أرض مصر كلها فطمعت فيهم العمالقة فغزاهم الوليد ابن دوفع فقاتلهم قتالاً شديداً ثم رضوا أن يملكوه عليهم فملكهم نحواً من مائة سنة فطغى وتكبر و أظهر الغامشة فسلط الله عليه سبعاً فافترسه "٠

من هم هؤلاء العماليق الذين هزموا المصريين وحكموهم ؟

يرد علينا ابن عبد الحكم " من ولد عملاق ويقال عمليق بن لاوز بن سام " ثانيا سام و أولاده٠٠٠الريان بن الوليد فرعون زمن يوسف أيضاً من سلالة العماليق أبناء سام لذلك فلقد سهل التفاهم بينه وبين النبي يوسف اليهودي من أبناء سام " فأجلسه على السرير ودخل الملك بيته مع نساءه ففوض أمر مصر

كلهـا إليه فـبسـبب عبـارة رؤيا الملك ملك يوسف مصـر ".. يوسف رد لقريبه السامي الفرعون الريان بن الوليد الجميل " اشـتد الجوع على أهل مصر فاشتروا الطعـام بالذهب حتى لم يجـدوا ذهباً فـاشـتـروا بالفضـة حتى لم يـجدوا فـضة فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنماً فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبقى لهم فضـة ولا ذهب ولا شاه ولا بقرة في تلك السنتين فـأتوا في الثالثة فـقالوا له لم يبق لنا إلا أنفسنا و أهلونا و أرضـونا فاشترى يوسف أرضهم كلهـا لفرعون ثم أعطاهم يوسف طعاماً يزرعونه على أن لفرعون الخمس " تفسير هذا أن يوسف استـغل مـعرفتـه بسنوات القـحط التي تعقب سنوات الخـير فـخزن الغـلال ثم استغلها فى جمع ذهب وفضة وحـيوانات المصريين ثم اشترى أرضهم وحولهم إلى أقنان لصـالح فـرعـونه وعلى قارىء هـذه الحدوتة أن يتـسـاءل عن هؤلاء المصريين السذج الذين يتكلم عنهم ابن عبد الحكم ٠

على عكس هذا حدث لأهل يـوسف اليهود "دخل أهل يوسف مـصر وهم ثلاث وتسعون إنساناً وخرجـوا وهم ستمائة ألف " أي في اللحظة التي أكرمت مصر أهل يوسف كان هو السبب في تحويلهم إلى أقنان فاقدي الملكية ٠

هذا عن يوسف أما نبي الله موسى فقـد " أغرق الله فرعون وجنوده في اليم حين اتبع بني اسرائيل وغرق معه من أشراف مـصر و أكابرهم ووجوههم أكثر من ألفي ألف " مليـونين من رجال مـصـر غرقـوا في شق البحـر. وللأسف لم يتصـور من منحنا هذا الرقم المسـاحة التى يمكن أن يشـغلها مليـونين من الجنود بمعداتهم وعـجلاتهم وخيولهم وكـيف سيستـوعبهم شق في البحـر الأحمر أو الخليج ولكنها الإسرائيليات!

ثم يورد ابن عبد الحكم القصة الغريبة التي أخذها عنه من بعده ابن الحسن الشافعي و ابن اياس عن الملكة دلوكة والبرابي السحرية وترتيب ملوك مصر حتى دخول بخت نصر وإفناءه للمصريين ٠

القارىء لكتب الأقدمين منذ عبد الرحمن ابن عبد الحكم بعد قرابة قرن من حكم عمرو بن العاص لمصر إلى ابن الحسن الشافعي بعد قرن آخر ثم ابن اياس بعد ستة قرون سيجد أن هناك قصداً منذ البداية حتى النهاية على الحط من شأن المصريين القدامى أبناء حام خدام أبناء سام السحرة المحظوظين لأنهم يعيشون على أرض باركها دعاء نوح عليه السلام والدليل على ذلك تلك البرابي (المعابد) التي لا يعرفون سبباً لإقامتها والكنوز المدفونة بدون مبرر واللغة الغريبة التى يمتلىء قلمها بصور الطيور وفقدت معناها لديهم، وأقباط مصر بلغتهم الخاصة وكتبهم التي بها أحداث التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل.. هؤلاء السحرة أبناء السحرة ٠

اليهود على مر العصور كانوا هم الحكماء الغالبون في حين كان المصريون دائماً ما يحتاجون إليهم ليسوسوا حياتهم وينظموا لهم الخير الكثيف الذي تمنحه الأرض ببركة دعاء نوح وبنيه.

إحساس السكان المحليين بالدونية يجب أن يكون رد الفعل الطبيعي لتلك الثقافة، فلا عجب أن يستسلموا لحكم الغرباء سواء كانوا عرباً أم جركس أم أتراك حتى لو كانوا عبيداً مماليك، فالغرباء مجرد أن يشربوا من ماء النيل ينتمون من فورهم إلى البلد ويعشقونها كما لو كانوا من أبنائها ٠

والحق لو أن أياً من المصريين المعاصرين اليوم الذين يعرفون أن هناك حقائق

وقصصاً أخرى وأسباباً، ويعرفون بدقة أصل المصريين وملوكهم وآثارهم وحروبهم ولغاتهم وحكمتهم، كان قد عاش في زمن لم يتم فيه معرفة أسرار لغات الأقدمين، فهل كان سيقص على أولاده سوى حواديت ابن الحكم والشافعي وابن اياس مردداً كل دعاوى الإسرائيليات ! ألا يستحق نابليون رغم كل مساوئه أن نقول له شكراً.

ثانياً : طلسمات تنويرية

" قال : قدموا طعاماً فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين ".

التوراة -سفر التكوين - الإصحاح ٤٣

" أن تقولوا عبيدك أهل مواشى منذ صبانا إلى الآن ونحن وآباءنا جميعاً لكي تسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس للمصريين ".

التوراة -سفر التكوين - الإصحاح ٤٦

ثانياً :مصر كما جاء ذكرها في كتب ما بعد القرن التاسع عشر

مدخل :

على عكس ذلك اليقين الذي صاغ به المؤرخون العرب الأوائل تاريخ مصر منذ أن سكنها شيث بن آدم و أولاد أخيه قابيل حتى دخلها عمرو بن العاص وجيشه غازياً أو فاتحاً .. وما قدمه الرحالة الإغريق والرومان - أمثال "هيرودت" و " ديدور الصقلي " و " استرابيون" -كما ذكر سليم حسن فى

الجزء الأول من موسوعته عن مصر القديمة "، من أساطير وخرافات كانت تُعتبر في أعين العالم إلى هذا الوقت أنهـا تاريخ البلاد الذي يعتمـد عليه " ٠٠سنجد أن علماء المصـريات قرب نهاية القـرن التاسع عشر وعـلى امتداد العشـرين قد اختلفـوا اختلافـاً بيناً وتراوح ما يطرحـونه بين الشك واليقين مما يسـتدعى بذل الجهـد و إعمـال الفكر لمحاولة تلمس الحـقائق لما حدث علـى الأرض المصرية على مدى تاريخها الممتد٠

صعوبة هذا ترجع إلى أنه ولآلاف السنين الأولى افتقرت البشرية إلى وسيلة تدوين بحيث كـان على الباحثين استـخدام وسائل ترجـيحية لبناء هيكل مـسار الزمن ٠ وحتى عندمـا ابتكر الإنسان وسيلة تدوين أصـبحت ليست ذات قيـمة لانتهاء استخدامها وفهمها لفترات طويلة تعد بالآلاف أيضاً أما ما كُتب بلغات مفهومة فلقد عرض بطريقة انتقائية لا تخلو من الهوى أفقدته مصداقيته٠

ولنقرأ لجيمس برستـيد ما كتبه عام ١٩٠٥ في مقدمـة كتابه تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

" ولا يخفى أن معلوماتنا عن التاريخ القديم لسكان وادي النيل ضئيلة ومن الصـعب علينا التوفـيق بينهـا " و هو يشيـر إلى عدم مـصداقـية الكتب القـديمة المعروضـة "، لأن معظم هذه المطـبوعات ظهـرت قبل التـحقق من مـحتويـاتها والتأكد من أخبارها وقصصها المنقولة عن القدماء"٠

السيـر والاس بدج يشكك أيضاً عام ١٩٠٣، فـقد كتب في مـقدمة كـتابه " آلهة المصريين" :

" منذ زمن بعـيد توقف علمـاء المصـريات عن عادة الاعـتمـاد المطلق على

المعلومات التي كتبها الرحالة الإغريق ٠٠٠٠إنهم جميعاً قد عجزوا عن استخلاص الحقائق الكاملة ٠٠٠"

جيمس بيكي في كتابه الموسوعي (الآثار المصرية في وادي النيل، الجزء الأول) ١٩٢٣:

" يعتمد السجل التالي على القوائم التاريخية لتاريخ " كمبردج " القديم وفي التواريخ القديمة حتى بداية الأسرة الثامنة عشرة أخطاء يمكن التغاضى عنها فمثل هذه التواريخ تعتبر تقريبية إذ أن المصادر لا تزال مختلفة اختلافاً واضحاً على الرغم من التعديلات الحديثة للآراء المتطرفة"٠

ياروسلاف تشرني في كتابه «الديانة المصرية القديمة »صادر في لندن ١٩٥١:

" فمن الصعوبة البالغة أن نستخلص أو نصوغ نتائج محددة خاصة بالديانة في العصور الحجرية القديمة حيث لم يصلنا من هذه الدهور السحيقة لعصور ما قبل التاريخ المصرية سوى بعض أدوات صوانية خشنة عثر عليها في أماكنها الأصلية على الهضبة الصحراوية "٠

سليم حسن في كتابه مصر القديمة (١٩٣٩):

" ظلت معلومات العالم أجمع عن تاريخ مصر القديمة ضئيلة هزيلة حتى منتصف القرن التاسع عشر وذلك يرجع إلى عدم معرفة قراءة نقوشها ٠٠٠٠"

د٠ جمال حمدان أصابته الحيرة أيضاً عندما حاول معرفة رأى العلماء في أصل المصريين، فنجد في كتابه «شخصية مصر» ١٩٨١:

" هنا أيضاً تختلف النظريات اختلافاً بعيد المدى، ويمكن على سبيل التيسير

والتبسيط أن تصنف معظم النظريات المتاحة و الآراء المطروحة في تيارين رئيسيين على طرفى النقيض "

لفهم حيرة جمال حمدان، دعنا نقرأ فقرة من كتاب وصف مصر «المجلد الأول» " المصريون المحدثون " الصادر عام ١٨٢٩ قبل أن يتشكل علم المصريات وتكتشف أسرار اللغة القديمة ·

كتب ج·دى· شايرول عن الأقباط " لعل أكثر الطوائف إثارة للاهتمام من بين كل سكان مصر هى طائفة الأقباط بلا جدال لأنهم يعتبرون أنفسهم أحفاداً للمصريين كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخية ما يرجح كفة مثل هذا الادعاء. ومما لا جدال فيه أن لهم ملمحاً أفريقياً شديد القرب من ملمح الأفريقيين لحد يكفي لكي يحملنا على أن ننسب لهم أصلاً يعود إلى الدولة القديمة، و لعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم من استطاع أن يظل نقياً ····"

القارىء سيلاحظ بالطبع لهجة عدم اليقين التي تغلب على النص الذي حشاه كاتبه بألفاظ مثل (لعل وعلى الأرجح ويفترض ···إلخ) ولكن وبالرغم من هذا فإن النص كان مفيداً بإشاراته ودلالاته التي تدعونا إلى التفكير وبذل الجهد لاستكمال ما بدأه الباحث حتى نصل إلى نتائج ذات درجة مناسبة من الدقــــة ·

فتاريخ مصر الممتد لآلاف السنين بل وتاريخ المنطقة التي كانت قلب هذا العالم في زمن ما من عمر البشرية يصعب أن نسرده بيقين يُعلي من شأن بعض القوميات ويحط من أخرى أو يحيط البعض بهالة من القدرة على الفعل ويدين

آخرين- كما فعل مبدعو **الإسرائيليات الذين نقل عنهم العرب إنجازاتهم الخيالية المبهرة - أو كما كتب وول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» المجلد** الأول ١٩٣٥:

" **يصعب علينا أن نحكم حكماً دقيقاً أي الحضارات التي نمت في بلاد** الشرق الأدنى والتي تتصل بعضها ببعض أوثق اتصال كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى ".

في الصفحات التالية وبعد أن " أخذ تاريخ البلاد ينجلي شيئاً فشيئاً مما قضى على الأساطير والخرافات ٠٠٠٠" كما كتب سليم حسن، سأحاول أن أتتبع ردود فعل العلماء والباحثين على الأسئلة التي حار فيها القدماء عن أصل المصريين ولغة الطيور وعجائبهم وقدرتهم على السحر ومن ملك الديار في أول الزمان وما هي علاقة البشر المرسومة صورهم على البراري والطلسمات بالفراعنة أو الأقباط ٠٠ **والسؤال الأكثر أهمية: لماذا انكسرت الحضارة على أرض هذا البلد فاستسلم أهله لقهر مستمر دام لألفي وخمسمائة سنة منذ غزو الفرس لمصر عام ٥٢٥ ق٠م وحتى خروج الإنجليز عام ٥٦ أو رحيل الإسرائيليين عن سيناء عام ٨٠ ؟**

ثم٠٠ كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من تخلف مقارنة بشعوب أخرى كانت في عصرها الحجرى يوم أن كنا سادة العالم ٠!!

ولنبدأ بسؤال جمال حمدان:

١-نحن المصريين من نكون؟

من أطلس العالم القديم " شعوب الماضي وأقطاره " الصادر عن " ناشيونال

جيوجرافيك " فصل " أرض الفراعنة من ٨٠٠٠ ق٠م حتى ١ ميلادية " جاء ما ترجمته:

" وهكذا عكف النهر على ترسيب طين غني بالمعادن بعد كل فيضان، مقتطعاً من "الأرض الحمراء " أي الصحراء واديا سمُي كيميت أي " الأرض السوداء " عاش عليه، حول أعوام ١٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق٠م، فلاحون ورعاة وصيادي سمك دلت آثارهم الحجرية عليهم، فلقد وجدت في أماكن متفرقة سكاكين ورؤوس أسهم وقصابات بالإضافة إلى مناجل و أحجار رحا قد تكون لحصد وطحن الحبوب البرية٠

مع سنة ٥٠٠٠ ق٠م حدث تطور درامي للحضارة المصرية بعد أن بدأ الفلاحون في زراعة الحبوب واستئناس الماشية والماعز والخنازير التي قد تكون قد جلبت أصولها من جنوب غرب آسيا ولكن تطورها ونموها كان صناعة مصرية خالصة ٠

بين الألفية الخامسة والرابعة قبل الميلاد انتشرت فنون الزراعة لتغطي طول الوادي لتنبثق تجمعات سكنية يطلق عليها " نوم " مبنية بالطين والحطب ولكل تجمع إله حامي مقدس ٠٠٠ هذه التجمعات سرعان ما توحد سكانها في إقليم مصر العليا وربما في إقليم الدلتا ٠

حوالي ٣٠٠٠ ق٠م بدأ حاكم مصر العليا في توحيد تلك التجمعات السكنية حوالي " ٤٠ نوم " مكوناً أول حكومة موحدة لوادي النيل بمصر تحت حكم ملك واحد غير مؤكد اسمه فقد يكون مينا أو نارمر أو قـــــها "٠

ياروسلاف تشرني في ملحق كتابه عن الديانة المصرية القديمة يورد جدولاً

بأقاليم مصـر العليا وآلهتهـا ويحددها ب ٢٢ إقليماً مع ذكـر تطورات الأسماء لتلك الأقـاليم باللغـة المصـرية ثم أثناء حكم اليـونان والرومان ثـم حاليـاً وفى جدول آخر مشابه يورد ٢٠ إقليماً في مـصر السفلى ليكون العدد الصحيح ٤٢ إقليـماً ٠

سليم حسن فى كتـابه «مصـر القـديمة» الجـزء الأول " العـصر الحـجـرى الحديث" كتب:

" ففي أفريقيا الشـمالية أخذ الجو يصير أكثر جفافـاً وأشد حرارة من العصر السابق ٠٠٠ والواقع أن قلـة الأمطار وشدة التبـخر تسببـا في نقص محـسوس لنظام المياه ٠٠٠ فانقلبت الغابات اليانعة إلى أرض عشبية لا يستطيع الإنسان أو الحيـوان البقـاء فيهـا، وفى خلال هذه المدة أخـذ وادى النيل يُكَوِّن ببطء شكله الحالي ٠

وقد كان النهـر فى خلال تكوينه يترك رواسبـه في الوادي الذي يغطيه بالماء ثم ينكمش تدريجـياً، إذ كان فـي كل عام يفيض على جـانبيـه مدة ثلاثة أشـهر ويترك الغرين الذي يجلبـه معه من منابعه مما يكسب الوادى خصبـاً وعند انتهاء هذا الفصل ينكمش مجرى الـنيل ثم يترك مجموعة من المستنقـعات على حافة الصحراء تكثر فيها النباتات المائية وبخاصة البردي فتأوي إليه الحيوانات الخطرة كجاموس البحر والتمساح والحشرات المؤذية " ٠

" وفي الواقع أن العصـر الحجري الحديث هـو العصر الحقـيقي الذي أهلت فيه مصر بالسكان ٠٠٠بدأ الانسان يعيـش عيشة الرعاة والفلاحين وأخذ يسكن القرى بعد أن كان جائلاً من مكان إلى آخر في الهضاب المترامية الأطراف ٠٠٠

أخذت القبائل تزرع الحبوب المغذية وبخاصة الشعير وتربي الحيوانات قليلة الخطر كالثور والخروف والماعز والخنازير "٠

" والواقع أن هذه القبائل أصبحت أهل فلاحة بالمعنى الحقيقي، وكانت قرى العصر النيوليتي مؤلفة من عدد من العشش المنفصل بعضها عن بعض ويحتمل أنها كانت مسورة بسياج مؤلف من الأوتاد حماية لها، وقد عثر على قرى من هذا العصر في مرمدة بني سلامة ٠٠٠٠"

" عادات الدفن النيوليتية التي عثر عليها في هذه المقابر ظلت النهج الذي سار على منوالها قدماء المصريين وبقوا يسيرون عليها في كل عصور التاريخ مع إدخال تحسينات عليها ".

ما معنى العصر النيوليتي !! هو عصر استخدام الحجر المصقول بعد التهذيب وقبل استعمال المعادن ٠

وهكذا يمكن أن نفهم من سليم حسن أنه كان يعيش في الصحاري حول الوادي، عندما كانت هناك غابات تمتلىء بالحيوانات والطعام، إنسان أفريقي هاجر في اتجاه الوادي عندما تغير الطقس ثم استوطن قرى على الأطراف قام فيها بالرعى والزراعة واستخدام أدوات حجرية مصقولة ٠

أما برستيد فقد كتب في " تاريخ مصر ":

" كان القطر المصري من مبدأ مدنيته منقسماً إلى عدة إمارات صغيرة مستقلة أخذت تلتئم تدريجياً حتى تكونت منها مملكتان عظيمتان إحداهما بالوجه القبلي والأخرى بالوجه البحري، وامتازت الأخيرة بسرعة تقدمها فى الحضارة وقد ألهمت سنة ٤٢٤١ ق٠ م أن السنة الشمسية تتكون من ثلاثمائة

وخمس وستون يوماً وهذا التاريخ ٤٢٤١ ق٠م هو أقدم تاريخ ثابت معروف للآن على ظهر البسيطة، ومن ذلك الوقت لقبت مصر "بأرض القطرين ". وفي عام ٣٤٠٠ ق٠م انضم هذان الوجهان تحت سيطرة الملك مينا فكان أول من حكم أرض مصر مجتمعة"٠

د٠ جمال حمدان في شخصية مصر يقدم بحثاً مستفيضاً رداً على سؤاله " نحن المصـــريون من نكون !! مـا الأصل والعرق والنسب ومنذ متى ظهـر المصريون كشعب و كشعبة من البشر ٠٠٠"

وهو يبدأ بحثه بإنسان العصر الحجري القديم:

" قد لا تكون مصر مهد الجنس البشري أو الموطن الأول للإنسان بل أن من المسلَّم به أنها ليست كذلك ولكن الإنسان المصري يعد بالتأكيد من أقدم سلالات الأرض. فمن المؤكد أن تعمير مصر بدأ مبكراً جداً منذ وقت بالغ القدم يسبق فجر التاريخ المكتوب بمراحل سحيقة على أقل تقدير٠ فالإنسان ظهر على مسرح الحياة في هذا الجزء من العالم في عصر البلايستوسين أي في العصر المطير على الأقل. ومنذ أوائل العصر الحجري القديم بالقطع تظهر مصر وهي منطقة معمورة مسكونة بواسطة جماعات مختلفة منتشرة في معظم أجزاء الوادي، تدل على ذلك بقايا الأدوات الصوانية والآلات الحجرية و مخلفات السكن والمساكن التي تركتها تلك الجماعات ؛ رغم أننا لم نجد لها بقايا جسمانية ٠٠ فلسنا نعرف شيئاً محدداً عن شكل إنسان العصر الحجري القديم المصري"٠

وبعد أن استعرض د٠ جمال حمدان الدراسات والأبحاث المختلفة المتصلة

بهذا الموضوع توصل إلى أن إنسان العصر الحجري الحديث جاء من جماعتين " جماعات من طوال الرؤوس في الصعيد وكانت بالدلتا جماعات أخرى من جنس البحر المتوسط إلا أنها أعرض رأساً والأنف أضيق نسبياً " ۰۰۰۰ بمعنى " الجنس الأورأفريقى الذي يعد الجد الأعلى لجنس البحر الأبيض، ورغم أن هؤلاء لم يخلوا من تأثيرات زنجية ما تسربت إليهم من خلال اختلاطهم بالأجداد القدماء للبوشمان، إلا أن العناصر التي وصلت منهم إلى مصر خلت من تلك المؤثرات بالذات، فظلت مصر خالصة في ذلك العنصر للجنس الأورأفريقى النقي " ۰

وتوصل د۰ جمال حمدان إلى أن المصريين قبل عصر الأسرات كانوا " الغالبية العظمى وقاعدة الأساس تتكون من عناصر أصلية من أفريقيا البيضاء والبحر المتوسط أضيفت إليها عناصر ثانوية من أفريقيا السوداء متزنجة بل وأحياناً زنجية ثم أخيراً عناصر من عالم البحر المتوسط كالسوريين - الكنعانيين وحتى البلقانية واليونانية "۰

أما مصريو عصر الأسرات فلقد كتب عنهم " هنا حقيقتان أساسيتان أو ثلاث ينبغي أن تعلو فوق كل التفاصيل، الأولى كما يقول "شانتر" هي أن المصريين القدماء شعب أصيل في مصر ولم يفدوا إليها من مكان آخر ۰۰ الثانية كما يقول " مايزر " هي أن المصريين القدماء الأصليين يبدأون وهم جنس متجانس أساساً في صفاته وتركيبه ۰۰ والثالثة كما يقول " كون " هي أن احتمالات الاختلاط المهمة قلت مع ومنذ بداية عصر الأسرات التاريخية "۰

"بول " أيضاً اعتبر " أن المصريين ينتمون إلى عنصر متوسطي واحد هو ممثل

نقي للجنس الأبيض" ٠

ويقول " برودريك ": ٠٠٠ من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أو يزيد أنه لم يكن هناك أي تغيير ملحوظ في مظهر جمهرة المصريين فالبداريون (حجري قديم) و أهل النقادتيين (حجري حديث) و مصريو الأسرات والفلاحون الذين تراهم يعملون في الحقول اليوم كلهم من نفس النمط القاعدي - المتوسطي" ٠

ويقول " كون " " من الموظفين ورجال القصر والكهنة وغيرهم من الطبقة العليا يبدون إلى حد لافت بشدة كالأوروبيين المحدثين " ٠

هل أجاب د٠ جمال حمدان على تساؤل الشافعي عندما رأى على جدران المعابد رسومات المصريين فقال: " هؤلاء ليسوا باليهود ولا بالنصارى ولا المسلمين يدروا من هم ولا التاريخ ينبئ عن حالهم !! " أم أن سؤاله لا يزال ينتظر مزيداً من الدراسات والأبحاث ٠

" لقد ترك لنا التحنيط وعادة دفن الموتى عند قدماء المصريين متحفاً أنثروبولوجيا كاملاً لمصر الفرعونية وعينة إحصائية لا مثيل لها "، أدى لمعرفة دقيقة للملامح السائدة للقدماء - لقد كان مصريو عصر الأسرات هم ببساطة نسل وسلالة مصريي ما قبل الأسرات فهم استمرار وامتداد لهم وكلهم لهم ملامح أقرب إلى الأوروبي المتوسطي ٠٠ الجسم النحيف المعروق ذو الحوض الضيق والأيدي والأقدام الصغيرة نوعاً مع الرأس والوجه الانسيابي الكنتور البديع الشكل المتوسطي القالب " وهو الأمر الذي لايزال بالإمكان أن نلمحه لعدد مناسب من سكان مصر المعاصرين بالرغم من اختلاط أجدادهم بعد ذلك

بالفرس واليونانيين والعرب والأتراك والأوروبيين.

٢- قصص اليهود عن مصر التي تأثر بها كتّاب التاريخ العرب

كتب د٠ حسن ظاظا أستاذ الدراسات العبرية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في مقدمة كتاب "موسى وفرعون بين الأسطورية والتاريخية " تأليف الأستاذ عصام الدين حفني ناصف، صادر ١٩٧٥ ": لم ينفصل التاريخ عن الأسطورة إلا في عصور متأخرة جداً من حياة البشر على هذه الأرض وكان انفصاله رحلة طويلة شاقة عبر الحضارات ٠٠ ولا نستطيع أن نقول اليوم أن التاريخ قد انفصل تماماً عن الأسطورة بل إنه في بعض مواقعه التى انفصل فيها عن الأسطورة لم يستطع أن يتحد اتحاداً كاملاً بالحقيقة ٠٠٠ "

أما الأستاذ عصام الدين حفني ناصف فيكتب " لم يكن أسلاف اليهود لثلاثين قرناً ونيف خلت غير ألفاف من الرعاة ينتجعون الكلأ في الفيافي المترامية على مشارف بابل ويتخذون منها منطلقاً ينتزون منه بين الفينة والفنية على البلاد المجاورة ذات الخصب والثراء فيظفرون طوراً بالغنيمة ويبوءون تارة بالهزيمة ٠

وقد طالما كشف عبريو العهد القديم عن الحسد الذي ينتزي في صدورهم ويتلظى في جوانحهم نحو الشعوب المتاخمة التي تنعم دونهم بالظلال الوارفة والخيرات الوافرة، و أعربوا عن ظمئهم إلى الولوغ في دماء الأمم الآمنة التي أباحت لهم أن يعيشوا في كنفها. وبارك - العهد القديم - مجازر أولئك السفاحين في القبائل التي تكتنفهم ووصفها - بأنها الشريعة التي أمر بها الرب موسى - وإذا كان أولئك القوم لا ترقى هممهم في أغلب الأحيان إلى تحقيق

أمانيهم في واقع الحال فقد اجترءوا بأن يحققوها في منفسح الخيال ٠٠٠ فبدءوا بمصر وثنوا ببابل ثم انثنوا إلى آرام - الشام - ثم شدوا على فلسطين وهى بلاد تنعم بوفرة الغلال وجودة المصنوعات ٠٠٠"

" ويرى غير قليل من العلماء النابهين أن قصة موسى والضربات التي أهوى بها إلى مصر وجيشها لا تعدو أن تكون إحدى تلك القصص التي تخرقها كتاب الأسفار اليهودية المقدسة ومضوا فيها ينكلون بخصومهم في الخيال بعد ما عز عليهم التنكيل بهم بالنعال " ٠

وفي كتابه " اليهودية في العقيدة والتاريخ " صدر عام ١٩٧٧ يقدم لنا نفس المؤلف فصلاً عن الأساطير عند اليهود " كان من جراء هذا الجهل أن تقبل العبريون الأساطير التي كانت ذائعة بين الشعوب المجاورة وانتحلوا الكثير منها وبخاصة الأساطير البابلية ٠٠٠ فما الأساطير ؟

هي قصص ابتكرها البدائيون لتفسير ما يغم عليهم من ظواهر الطبيعة وأحداث الكون، وليس عجباً أن تكون تلك القصص بدائية كالأذهان التى تفتقت عنها ٠٠ وقد ذاعت تلك الأساطير وشاعت على ترادف الأزمنة وتخالف الأمكنة وهي تتشابه تشابهاً وثيقاً على ما بين البلاد التي ذاعت فيها من بعد الشقة ٠ "

والأساطير ضروب شتى، فمنها :

أساطير تكشف عن أصل الإنسان وتبين كيف وفد الموت على العالم، وتوضح كيف تعددت اللغات، كالأساطير التي حاكتها بعض الشعوب حول خلق الوجود في ستة أيام ومعصية آدم وبناء برج بابل (وما يتصل بأصول

المصريين سواء من آدم أو من نوح)٠

أساطير تتـعلق بحوادث طبيعيـة وتفسر بعض الظواهر الطبيعـية كأسطورة اكتساح الطوفان للكرة الأرضية كلها (ما يتـصل بفيضان النيل وانخفاضه وبقايا الأرض المصرية بدون بشر تزرعها) ٠

أساطير تعلل ما استرعى الانتباه من أشياء غير مألوفة كأسطورة مسخ امرأة لوط عـموداً من الملح (مـا يتـصل بالمعـابد المصرية التـي سمـوها بربا أو الآثار المدفونة) ٠

أساطير تتـعلق بتاريخ شخص حقـيقي كالأسطورة القائلة بـأن الناس كافة منحـدرون من أرومة نـوح (ما يتـصل بفـرعون مـوسى الذي عـاش أربعمـائة عام)٠

أساطيـر تتعلق بتاريخ شـخص حقيقي كـالملك سليمان أو مـوهوم كالملك آرثر(مثل تلك التي تتصل بالملكة دلوكة و أسحارها) ٠

أساطيـر تبين الأصل المنسي لبـعض العادات والمناسك والاحـتفـالات (ما يتصل بالكتابة الهيروغليفية وعلاقتها بدحر الأعداء) ٠

وقد كان أعضاء الأسر الكبيـرة في الزمن الحالي ينصتون إلى هذه الأساطير في رهبـة وخشـوع، فلمـا درس ذلك النظام ونشأت طائـفة الأطبـاء والسحـرة أصبحوا هم الذين يصرفون أمور قبائلهم واستأثروا برواية أساطير الآلهة "٠

إيريك فروم عـالم النفس الأمريكي اليـهودي كتـب عام ١٩٦٦ في مقـدمة كتابه " فلتكن إلاهياً" الصادر في نيويورك عام ١٩٩١، ما ترجمته:

" هذا الكتاب جاء لـيعكس ما تعلمته لـسنين طويلة منذ زمن الطفولة – من

أساتذة عظام للتلمود - للعهد القديم والأعراف اليهودية خاصة ذلك الجناح الإنساني منها الذي تبناه أساتذتي ٠٠ وعليه نمت رؤيتي من خلال دروسهم التي أوصلتني إلى نقطة معينة افترق بعدها الطريقان مكوناً رؤيتي الخاصة "

" العهد القديم كتاب ذو ألوان متعددة كُتب وصيغ وأُعيدت صياغته بواسطة أفراد عديدين على مدى ألف عام تطور خلالها من البدائية والرؤية العشائرية الضيقة وتغلب مذهب السلطة إلى فكرة الحرية الجذرية للإنسان وأخوة كل البشر "٠

" وهكذا فأنا لا أنظر إلى الكتاب المقدس على أساس أنه كلمة الله، ليس فقط لأن الفحص التاريخي أظهر أنه قد كتبه رجال مختلفي المناحي عاشوا في أزمنة مغايرة، ولكن لأنني رغم إيماني بالله إلا أنني لا أؤمن بالوحي ٠٠ ومع ذلك فهذا الكتاب بالنسبة لي كتاب غير عادي فهو يحتوي على نماذج وقيم أساسية عديدة ظلت محتفظة بصلاحيتها لآلاف السنين " ٠

" تاريخ اليهود لم يتوقف بعد ضم أسفار العهد القديم الـ ٢٤ في كتاب واحد. لقد استمر التطوير والتعديل للأفكار المطروحة فيها عبر مسارين مستمرين ؛ أحدهما ما جاء بالعهد الحديث كتاب المسيحيين المقدس، والآخر تطور يهودي خالص تحت اسم " الأعراف الشفهية " والتي يصر اليهود على أنها استكمال للعهد القديم ٠٠٠٠ ٠٠" الأعراف الشفهية " تم تسجيلها في كتب قديمة " مشتاح " حوالي ٢٠٠ ميلادية وجزؤها التالي " حجرا " حوالي ٥٠٠ ميلادية ".

" أريد أن أظهر بهذه الأفكار أن العهد القديم يمثل تطوراً لأفكار طُرحت

على مدى زمني طويل، و أن هذه الأفكار استمرت في التطور حتى بعد ضم الأسفار في كتاب العهد القديم ".

وهكذا " فهذه الكتب تمثل بشكل ملحوظ تطور الشعب اليهودي من قبائل رعاة إلى شعوب تعيش في بابل وتأثرت بعد ذلك بالحضارة الهيلينية ".

الغريب أنه " بعد إتمام جمع أسفار العهد القديم لم يظهر التناقض بين التطور من الأفكار المهجورة لقدمها وبين تلك التى طرحتها الحياة الحضرية وإنما كان الانفصام والتناقض الثابت بين الرؤى المختلفة لتاريخ اليهود الممتد منذ زمن هدم المعبد إلى تدمير مراكز الحضارة التقليدية بواسطة هتلر " ٠

في كتاب «حاضر الثقافة في مصر» للأستاذ بيومي قنديل، صدر عام ١٩٩٠، كتب عن الصراع الدائم في العالم القديم بين الزرّاع والرعاة ". ولقد أخذ هذا الصراع أحياناً شكل الغزو وأحياناً شكل التسلل وأحيانا أخرى شكل الهجرة، لكنه ارتدى أحياناً أخرى شكل المطاردة، إلا أن هذا الصراع اكتسب بصفة عامة طابع الدفاع من جانب الزراع الذين قنعوا بما تحت أيديهم والهجوم شبه الدائم من جانب الرعاة الذين طمعوا فيما يعوزهم بل وحلموا به أحلاماً خلابة انعكست في أساطيرهم ومعتقداتهم قبل أن يصلوا إليه ٠٠ دفاع دائم وهجوم شبه دائم جعل المصريين يبدون ودعاء والساميين يبدون غلاظاً همجاً وعلى أقل تقدير هكذا وصفها سيجموند فرويد الموسوي الديانة في كتابه الشهير «موسى والتوحيد» صفحة ١٠٩ - بينما انتظر المصريون الودعاء حتى رفع القدر الشخص المقدس لفرعونهم، أخذ الساميون الغلاظ الهمج قدرهم في أيديهم وتخلصوا من طاغيتهم "٠

" وفى خضم ذلك الصـراع الذي اختلط فـيه التاريخ بالأسـطورة والحقيـقة بالخيال والرغبات المكبوتة بالأحلام السعيدة، ظهرت شخصية إبرام ".

ثم يسرد الكاتـب القصة التي سـبق عرضهـا عن إبراهيم وسارة والفـرعون ويعلق عليها " يطرح هذا النص التوراتي عـشرات الأسئلة على كل إنسان يملك عقلاً مستقلاً ولكن الـسؤال الرئيسي في ظننا هو لماذا عاقب الرب فرعون الذي اتخذ امرأة جميلة هي أخت ضيف حل عليه في أرضه زوجة له برضاها ورضاه بعـبارة أخـرى لماذا انتـقم هذا الرب من فـرعـون بل ومن أهله مـعه لجـريرة لم تقترفها يداه أو أيديهم " ٠

الرد على هذا قدمـه الدكتور سيـد القمني في كتـابه "النبي إبراهيم والتاريخ المجـهول" ١٩٩٠، "لكن يظل الـتسـاؤل ٠٠ وما الداعي لبـحـثنا هذا ؟ ومن ثم نرصد مزيداً من الدواعي والدوافع، فرغم الاخـتلافات بين التوراة – المسلم بها بين المسـيحيـين.كمقـدس وبين الإسلام – فـإننا نجد الأديان الثـلاثة – اليهـودية والمسيحـية والإسلام – في جانب وعلم التاريخ في جانب آخـر، حيث نجد هذا العلم لا يعلم من وثائقه الأركـيولوجية والأثـارية شيئاً البـتة عن النبي إبراهيم. ورغم اتفاق القصة التوراتية مع قـصص الإخباريين المسلمين حول موطن النبي إبراهيم الأصلي وأنه هاجـر من بلاد الرافدين إلى فلسطين وأنه زار مـصر زيارة مهمة وخطيرة – وكانت هذه الزيارة لمصـر أساساً للثروة الطائلة التي تمتعت بها ذريته فيما بعـد – فيما يقول " المستر ماير" فـإنه لم يعثر حتى الآن على أي دليل آثاري سواء كان كتـابة أم نقشاً أم حتى نقش يقبل التفسـير أو في نصوص تقبل حتى التـأويل يمكن أن يشير إلى النـبي وقصته سـواء في آثار وادي النيل أو آثار

وادي الرافدين على كثرة ما اكتشف فيهما من تفاصيل ووثائق ٠٠ هذا بدوره سبب كاف لدعم دوافع باحث مهتم كي يضع المسألة كلها قيد البحث ؛ خاصة أن عدم معرفة علم التاريخ بهذا النبي رغم حضوره الكثيف في الديانات الثلاث، قد أدى ببعض الباحثين إلى حسبانه شخصية أسطورية لا تمت لعلم التاريخ بصلة " ٠

وهكذا " بالنسبة لكتب الأخبار الإسلامية فقد لجأت لذات التوراة الموجودة بين الأيدي اليوم، واستقت منها تفاصيل هائلة كماً وكيفاً بحيث أصبحت هذه التفاصيل مرجعاً إسلامياً للمسلمين لورودها في أمهات الكتب الإسلامية وتشكل كماً هائلاً داخل هذه الكتب ٠٠٠ وقد أدرك زعيم طبقة كُتّاب الأخبار والسير (الحافظ بن كثير الدمشقي) حساسية الأمر، لذلك نجده يبدأ مقدمة مؤلفه الموسوعي (البداية والنهاية) بتقديم مبررات الاعتماد على الإسرائيليات فيقول - ولسنا ننقل عن الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعاً مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه - ثم يدلي ابن كثير بسنده الشرعي للأخذ من التوراة حتى لا يقع عليه لوم أو تسريب، فيورد حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم - بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج - ثم يعقب على الحديث بالقول - فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عليها عندنا فليس عندنا ما يصدقها ولا يكذبها ويجوز روايتها للاعتبار وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا اليوم " ٠

" وإذا كان عصر بن كثير بعد ستة قرون من النبوة قد اضطره إلى اللجوء للتوراة، فإن عصرنا بعد أربعة عشر قرناً قد أصبح يحتاج إلى إعادة نظر في الأمر برمته وبخاصة في إسرائيليات التراث الإسلامي ٠٠٠ "

وهكذا اتفق د٠ حسن ظاظا والأستاذ عصام الدين حفني ناصف والأستاذ بيومي قنديل و د٠ سيد القمنى، فيما يشبه التيار الثقافي على رفض دعاوى الإسرائيليات ضد مصر والمصريين ووضعوها في إطار حقد قبائل الرعاة البدو اليهود على المدنيات الزراعية الأكثر تقدماً وحضارة، فقهر الأوائل الآخرين في أحلام يقظتهم ودونوها في كتبهم ثم أن المؤرخين العرب اعتبروها مصدرهم الأساسي في سرد تاريخ المصريين القدماء المسكوت عنه في وثائق الدين الصحيحة ٠

برستيد في كتاب "فجر الضمير" يتفق مع الدكاترة والأساتذة السابق عرض أفكارهم، فهو يكتب في الفصل السابع عشر " مصادر إرثنا الخلقي " أن : "الأساطير العتيقة التي نشأت في غرب آسيا ولاسيما البابلية منها مما عَبَّرَ عنه الأدب المبكر أبلغ تعبير وظهرت له حيوية مدهشة حتى صارت هذه الأساطير شائعة الانتشار إلى ما وراء تخوم " بابل" بمسافة بعيدة وكانت ذخراً كبيراً لموضوعات الفن الزخرفي المبكر في غرب آسيا ٠ على هذا النحو شقت **أسطورة الطوفان البابلي** طريقها متجهة غرباً شطر البحر الأبيض حتى انتشرت في سوريا وفلسطين إلى أن فتحت في النهاية طريقاً لها إلى الأدب العبراني ومن ثم وصلت إلينا عن طريق " العهد القديم ". وتوجد في جميع الأدب العبراني إشارات لتلك الأساطير وبخاصة في الإنشاد الديني التي نسميها "

المزاميـر " " مما انحـدر إلينا عـن طريق " قـانون حـمـورابي " كـانت مـتـداولة الاستعمال كذلك في فلسطين قبل عهد العبرانيين ثم وصلت عن طريق " العهد القديم " إلى الحضارة الغربية ".

ثم أورد " برسـتيـد " بعد ذلك، عـدة مقـارنات بين نصوص مـصرية قـديمة وأخرى توراتية ليخلص منها " الواقع أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية مع أنها ترجع إلى ما قبل الدين العبراني بزمن بعيد ٠٠٠٠"

" هذا ولـدينا الآن الأدلة الـوافـــرة على أن التـطور الديـني الذي أحـــرزه العبرانيون بعـد عودتهم من المنفى (في بابل) كان متأثرا بتـعاليم (زروستر) وأنه يجب لذلك أن نـضـيف إلى المؤثرات الدوليـة التي تعــرضت لهـا الخلقـيـات العبرانية التعاليم التي جاء بها هذا النبي الفارسي العظيم " .

ثم أن برستيد يشرح تأثير كسوف شمس بابل ومصر " ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقي الـعظيم قد وصـل إلى المدنية الـغربيـة من شـعب خامل الذكر سياسيـاً منزو في الركن الجنوبي الشرقي من حوض البحر الأبيض فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومي خـاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقـة لعام ١٠٠٠ ق٠م، ولم يبق أمـة موحدة إلا نحـو قرن واحد على أكـبر تقدير ٠٠٠ بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى التي بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق٠م قد وقعت تقريباً في النصف الأول من ألف السنة الأخيرة قبل السـيد المسـيح، وفي تلك الفتـرة كان تقدم الـثقافـة في مصر وفـي بابل قد نضب معينه وصار يعد خبراً من أخبار التاريخ القديـــم " ٠

" ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد اسـتعبدوا بعد لجوئهم إلى

مصر في زمن قحط حدث عندهم، وقد قام من بينهم عبـراني امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البـارعة ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العـبودية وبذلك صار يعد أول عبـراني عظيم وصل إلينا اسـمه • ومن المهم أن نلاحظ أن مـوسى وهو اسم هذا القـائد كان اسـماً مصـرياً •••••" ثم أورد تفـسيرات لـقصص التـوراة سواء تخريب سـدوم وعمورة، وأورد أنهـا إشارة لانفجار بركـاني، وأن انشقاق البـحر كان زلزالاً ثم أورد رأيه في قصة النبي يوسف " و أعظم مثل مقنع يدل على مهارة العبرانيين الجدد في القصص المسرحي الخـلاب الذي تنجذب إليه النفس هو قصة النبي يوسف ويبلغ مغـزى هذه القصة قمـته في الثبـات الخلقي الذي تنطوي عليه نفسيـة ذلك الشاب المبعد عن وطنه ••••• وهى مسـتقاة من قصة مـصرية قديمة شبـيهة كانت – لابـد – قد انتشرت في فلـسطين الكنعانيين حيث سـمع بها ذلك الكاتب الموهوب ••• وهذه القصة المصرية تعرف الآن عادة " بقصة الأخوين " •

وهكذا يتضح كم كان للـعبرانيين في زمن أقرب لانتشـار الإسلام من نفوذ ثقـافي على المنطقة وظـفوه في النكاية بمصـر والمصـريين مسـتولين على تراثهـا الثـقـافي والفني، ومُـدَّعين أنه تراثهم وتاريخـهم، كـمـا سنورد بعـد ذلك عند الحديث عن الـسحر لدى المصـريين واليهـود ••• وللأسف فإن ثقـافات ذلك الزمان التي استـخدمها العـبرانيون كانت قد ذوت إلى الدرجـة التي جعلت من أبناءها أعـداء لأجدادهم وتاريخـهم وثقافـتهم مـرددين فـيما يشـبه الانفـصام النفسي دعاوى الإسرائيليات ضد أصولهم •

٣- عجائب مصر وما بها من طلسمات وبرابي

يكتب وول ديورانـت في كـتـابه «قـصـة الحـضـارة» المجلد الأول،

الفصل الثاني " كشف مصر ":

" إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل في كتاب علم الآثار. لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من أوطان المسيحية، وكان الناس في زمن النهضة يظنون أن الحضارة قد بدأت من بلاد اليونان. وحتى عصر الاستنارة، لم يكن يُعرف من مصر أبعد من الأهرام ٠٠٠ وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية ٠٠٠٠ فقد شملت هذه الحملة أيضاً بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً يظنه الناس سخفاً في تلك الأيام ٠٠٠ ويسعون لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ، وكانت هذه العصبة من الرجال هي التي كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك، كما كان كتاب «وصف مصر» المفصل (١٨٠٩ -١٨١٣) الذي أعدوه للمجمع العلمي الفرنسي أول خطوة مهمة خطاها العلماء في دراسة هذه الحضارة المنسية"٠

" على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طويلة عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية، وليس ما بذله شامبليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر في حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمي الذي امتاز به علماء تلك الحملة ٠٠٠ عثر شامبليون على مسلة مغطاة بهذه الرموز المقدسة مكتوبة باللغة المصرية ولكن في أسفلها نقوش باللغة اليونانية، عرف منها أن هذه الكتابة لها صلة ببطليموس وكليوباترا، وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة

التكرار والتي يحيط بها الإطار الملكي (الخرطوش) هي اسم الملك والملكة، فهدته هذه الفكرة عام ١٨٢٢ إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية، ولكن هذا كان مجرد حدس وليس يقيناً... جعل هذا الكشف أول دليل على أن مصر كان لها حروف هجائية٠ شامبليون بعد ذلك طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر أسود عثر عليه جنود نابليون قرب رشيد. وكان على حجر رشيد هذا نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيتها الديموطيقية «الكتابة المصرية الدارجة»، والثالثة هي اليونانية. واستطاع شامبليون بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التي عرفها من المسلة الأولى، وبعد جهد متواصل دام لأكثر من عشرين عاماً، أن يحل رموز هذا النقش، و أن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها "٠

وهكذا أصبحت لغة الطيور مفهومة، و استطاع العلماء أن يقرؤونها فيعرفون أن "البربا" ما هي إلا معبد أو مقبرة و أن ما رسم على الجدران من بشر وحيوانات ومراكب إنما لتصف حياة البشر في ذلك الزمن وتقص قصص رحلاتهم واكتشافاتهم ولم تكن بهدف الإضرار بالأعداء الغزاة. وبدأ التاريخ يُسلِّم نفسه للإنسان الحديث والمعاصر ليعرف ببساطة الإجابة على كل أسئلة بن طولون، ويعرف أن أول ملوك مصر تم تنصيبه على العرش ولبس تاج القطرين الأحمر والأبيض حول عام ٣٤٠٠ق٠م ٠

واستكمالاً لما كتب وول ديورانت:

«ضم مينا - وهو شخصية يكتنفها بعض الغموض - القطرين تحت سلطانه

الموحد، و أعلن في البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله تحوت، وأقام أولى الأُسر المالكة التاريخية، وشاد عاصمة جديدة لملكه في منف (ممفيس) وعَلَّم الناس كما يقول مؤرخ يوناني قديم استخدام النضد والأسِرَّة، و أدخل في البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة».

" ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك بل شخصية فنان وعالم وتلك هي شخصية أمحوتب الطبيب والمهندس وكبير مستشاري الملك زوسر ٣١٥٠ ق٠م، وكان له على الطب المصري من فضل ما جعل الأجيال التالية تعبده وتتخذه إلهاً للعلم ومنشئ علومها وفنونها ويلوح في الوقت نفسه أنه هو الذي أوجد طائفة المهندسين التي أمدت الأسرة التالية بأعظم البناءين في التاريخ ٠

وتقول الرواية المصرية أن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه، وأنه هو الذي وضع تصميم أقدم بناء مصري قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ٠٠٠٠ ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التي جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسرات الحاكمة في تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشر، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التي استخرجت من أرض مصر في عهد آخر ملوك الأسرة الثالثة وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق في تجارة البحر المتوسط وقد تكون قسوة خوفو أول ملوك هذا البيت الجديد ٠٠٠٠" ثم ذكر وول ديورانت ما قصه الكهنة المصريون على هيرودوت في كيفية بناء الهرم بواسطة " مائة ألف في كل نوبة وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر لمدة عشر سنوات " لتمهيد الطريق الذي كانت تنقل عليه الحجارة فقط !!

" ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العمارة فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية، ذلك أن الملك كان يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن في كل جسم حي تستقر قرينة - كا - لا تموت حتماً إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه، و أن هذه القرينة يضمن بقاؤها بقاء كاملاً إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هي الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعه ٠٠٠"

" وإذ كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة في صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هي قد علت من تلقاء نفسها على جانب الطريق ولم تقطع وتنقل من محاجر تبعد عن مكانها الحالي مئات الأميال " ٠

والآن يوجد على الأقل مائتي كتاب بلغات العالم المختلفة تشرح وتفسر وتبرر وجود الأهرامات، بحيث انتهت تماماً حيرة الأجداد وأسئلتهم عن الأهرامات والمعابد التي حولها والتماثيل والطرق وخلافه ٠

ولكن ما الذي حدث لهؤلاء البناة !!

في كتاب «وصف مصر» المجلد الأول " مقدمة تاريخية " بقلم المسيو فورييه:

" إن هذه البلاد التي نقلت معارفها إلى كثير من الأمم هي اليوم غارقة في الهمجية، وبقدر ما تنال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد بفضل موقعها الجغرافي وبفضل خصوبة أرضها البالغة، بقدر ما تكون حاجتها ماسة إلى ما ستحققه لها القوانين والفنون والصناعات من مكاسب ٠٠ وحين كانت لها قوى عسكرية عديدة تتكون من محاربيها الخاصين كانت مصر منيعة مهيبة من الأمم المجاورة

لكنهـا فقـدت منذ زمان طويل مع فـقدها لأنظمـتهـا ومؤسـسـاتهـا اسـتـقلالـها ومعـارفها، بل أنهـا لم تعد قادرة على تذكـر عظمتهـا الأولى، ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية " ٠

" كانت مـصر في عهد ملوكـها الأول تطيع وتستـجيب لمبادئ وأخلاقـيات ثابتة ٠٠ وكان ثمة حكمـة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعـادات والتقاليد كـان كل شئ يوحي بالحرص عـلى المستـقبل ويدعـو إلى الشـروع في أعمـال يكتب لها الخلود وهذه هي اليوم تئن تحت أشد السلطات استبداداً في العالم بل و أكثر القوى الموجـودة على ظهر الأرض انعداماً للبصيرة كمـا لو كان قد قدر على هذه البـلاد أن تمر بأشد الأحوال الـتي عرفهـا المجتـمع الإنساني تناقـضاً " "حكام بشعين نسوا عائلاتهم وأوطانهم ويلفظون ذرياتهم ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جـاحدين مـتـمردين لا يمكن احـتـواؤهم، وحيث أنهم عـارون عن الحيطة وعن نور المعـرفة فلن يقدر لهم مطلقاً أن يعـرفوا كيف يثبتـون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها " ٠

وكان هذا هو واقع الحياة بعد أن عـانى المصريون من حكم الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك والأتراك وقبل وصول الحملة الفرنسية لمصر ٠

٤- هل كانت مصر أرض السحر والسحرة حقاً !!

كتب السير والاس بدج في كتابه «آلهة المصريين»:

" ومع ذلك فالمصـريون عملوا وفقاً لمنطـق متماسك، فـهم قد آمنوا بكونهم أمة مـقدسة، مـلوكهم آلهة مـتجسـدة خاصـة المتقدمين منهم الـذين أكدوا على كونـهم آلهة أبت أن تعـيش فوق الأرض وتسـعى مخـتلطة بالإنسان وهـو أمر

يجعلهم مختلفين عن الأمم القديمة التي قنعت في الأغلب بأن قدرة آلهتهم قد أوجدتهم في الحياة، بينما اعتقد المصريون أنهم كانوا نسل الإله الأكبر الذي خلق الكون وأنهم جاءوا من صلبه مباشرة ··· وأن الآلهة عندما أمسكت عن الحكم على الأرض بأشخاصها، أخلفت من بعدها أنصاف آلهة التي بدورها جاء بعدها من تجسدت أرواح السلف الصالح فيها وتلك تبعها الملوك الذين احتفظوا بطبيعة إلهية وسجايا خاصة ·· وبالتالي عندما يموت جسد الملك فالطبيعي أن يرحل الجزء الإلهي منه - أي روحه - ليعود إلى أصله ويسكن مع الآلهة ··· ويتحتم - طبقاً لهذا - على البشر الذين يعيشون على الأرض عبادته كرب من الأرباب - ولكن - للحصول على هذه النتيجة السعيدة كان لابد من إقامة شعائر معينة·· كتلاوة كلمات مناسبة في وقت محدد وبنغمات ونظم محفوظة من قبل وإقامة طقوس في المقابر في مواسم بعينها ··· وهى شعائر كانت من بدايتها ضرباً من السحر، وبمرور الأيام شاركتها الطقوس الدينية فأصبح جانباً منها سحراً والجانب الآخر عبادة " ·

" إذا قارنا بين الممرات في أدبيات التلمود - والتي تصف هذه الأشياء وأخرى شبيهة متعلقة بالملائكة والأرواح ··· إلخ من أساطير العبرانيين والكتابات المصرية، فسنجد أن كلاً من المصريين واليهود قد طرح أفكاراً عديدة مشتركة، وأن كل الأدلة تبرهن على أن العبرانيين قد استعاروا منذ العهود المبكرة من المصريين "·

" جوهر السحر والذي كان أكثر الملامح ثباتاً في عبادة الآلهة وفي الديانات المصرية ينتمي عموماً إلى فترة تسبق توصلهم إلى التمييز بين العناصر المختلفة

في الدين عندما كان الإنسان يفكر أن الأرواح الشريرة و أرواح الطبيعة كائنات لا تختلف عنه كثيراً ويمكن رشوتها بالعطايا و إغرائها بتنفيذ طقوس معينة أو نطق كلمات لها قدرات خاصة ويمكن دفعها للعمل بالتسابيح المختلفة.. هذه الأفكار دامت في عقول المصريين خلال كل فترات تاريخهم اللاحق وحتى اليوم "·

" وهكذا نجد سلسلة من الوصفات السحرية القصيرة في النصوص الخاصة بالملك يونس من الأسرة الخامسة أغلبها موجه ضد الثعابين والحيوانات المتوحشة وكلها كتبت بعبارات توحي بأنه قد تم تأليفها في زمن سابق ···"

من هذا يتضح أن معظم كتب الموتى المنقوشة على المقابر أو المكتوبة على ورق البردي كان الهدف منها سحري إما لمساعدة المتوفي على التحرك في العالم السفلي أو لحمايته والحفاظ عليه من الحيوانات الأسطورية والثعابين الضارة ويستمر هذا في كل العصور حتى في زمن البطالسة·

القصص السحرية الشهيرة تتصل دائماً بربة السحر إيزيس فهي في محاولة منها للحصول على اسم رع المحفوظ، والذي إذا ملكته تستطيع السيطرة على ملكوته، دبرت مكيدة سحرية أدت إلى مرضه حتى أصبح على وشك الفناء فأعطاها اسمه ·· الأخرى تتصل بأزوريس أخوها الذي كاد له أخوهما ست وقتله، فاستطاعت بسحرها هي و أختها نفتيس إعادته للحياة وتخصيبها بابنهما حورس وحكم العالم السفلي ·

كلمات القدرة والأسماء المحفوظة والتراتيل والأدعية والصلوات كانت كلها وسائل سحرية للسيطرة على المجهول · " هؤلاء الذين يعملون بالسحر

والتنجيم والعرافة.. تلك الطوائف كـان أفرادها يصفونه - أي رع - بأنه ترياق السمـوم والأمراض، و اعـتقدوا أن تلاوة أو ارتداء بعض القـصوص السـحرية سيكون له أثر فعال خصوصاً إذا احتوت الرواية على الوسيلة التي تم بها - عن طريق قدرة كـائن أعظم - خلاص بعض الآلهة أو الكائنات الربانية من الموت بالسم أو الشفاء من مرض تسبب فيه السم "•

وظل هذا المفهوم ملازماً للمصـريين طول فترات وجودهم على أرض مصر وحتى زمـننا الحالي، قـد نجد البعـض الذي يؤمن بقدرة المصـريين - خصـوصاً رجال الدين الأقباط - على شفاء المرضى وقضاء الحوائج بواسطة السحر •

في كـتـابه " دين الإنسـان " الفصل الخـامس " بين السـحـر والدين " كـتب الأستاذ فراس السواح:

"انطلاقاً من فرضيـة الفيلسوف هيجل التي تقول بأن عصراً ساد فـيه السحر قـد سبق عـصر الدين في تاريخ الحـضارة الإنـسانيـة ،قام رائد الأنثـربولوجيـا الفطرية في بريطانيـا السير جيـمس فريزر بصيـاغة نظريته المعروفـة حول أصل الدين وعلاقته بالسحر. في البداية يفتـرض أنه قد مر على الإنسان عهد ظن فيه أن بمقدوره التحكم في سير عمليات الطبيعة بواسطة تعاويذه وطقوسه السحرية •• وعندما اكـتشف بعـد فتـرة طويلة قصور هذه الوسـائل عن تحقـيق غايتـها تصور أن الطبـيعة التي تأبت على الانصـياع له واقعـة تحت سلطان شخصـيات روحـانية فـائقة القـدرة، فتـحول إلى عـبـادة هذه الشخـصيـات واستـعطافهـا واسترضائها بالأضاحي والقرابين لتـقف في صفه وتلبي له حاجته وبذلك ظهر الدين وتحول الإنسان عن السحر وحل كاهن المعبد محل ساحر القبيلة " •

وهكذا " ففي سفر الخروج من توراة اليهود يقوم موسى وهارون بعدد من الممارسات التي لا تخفي طابعها السحري ٠٠ فلكي يعمل موسى على إصابة المصريين بالبثور والدمامل يلجأ إلى القيام بفعل يقلد انتشارها حيث ينثر في الهواء ذرات من رماد الآتون "٠

(فأخذ موسى وهارون رماد الآتون ووقفا أمام فرعون وذراه نحو السماء فصار دمامل في الناس والبهائم) وبعد ذلك تقوم عصا هارون بالدور المعروف لعصا الساحر (ومد هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس والبهائم) (وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون أمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دماً ومات السمك ٠٠٠ طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً).

وفي الواقع لو أننا قرأنا عن عجائب موسى وهارون في ملحمة شعبية لا تستند إلى خلفية دينية لقلنا ساحران عظيمان٠٠٠ " فإذا تابعنا المعجزات التي يجترحها موسى وهارون وصولاً إلى قيام موسى بشق البحر بعصاه لوجدنا أن هذا العمل الأشهر لموسى ليس إلا نسخة عن عمل سحري مشابه ورد في بردية مصرية تعود إلى حوالي عام ١٥٥٠ ق٠م. تحكي البردية ما ملخصه أن الفرعون سنيفرو شَعَر في أحد الأيام باكتئاب لم تنفع في إزالته كل ضروب اللهو المتوفرة في القصر الملكي، فدعا إليه كاهناً حكيماً معروفاً بقدراته السحرية واستشاره فيما يزيل عنه اكتئابه، فأشار الكاهن برحلة نهرية في القارب الملكي تتخللها ضروب اللهو والتسلية ٠٠٠٠ ولكن إحدى الفتيات أسقطت إلى النهر سهواً مشبك شعرها التركوازي العزيز عليها فحزنت وتوقفت عن التجديف والغناء وتوقف معها أيضاً صويحباتها وهنا توجه

الفرعون إلى الكاهن ليجد حلاً ويعيد الفرح إلى قلوب الفتيات ٠٠٠ فوقف الكاهن عند حافة القارب وتلفظ ببعض أسماء القوة فانشق الماء وانزاح نصفه فتراكبا فوق النصف الآخر فظهرت الحلية التي تم التقاطها و إعادتها إلى الفتاة ثم نطق ثانية بأسماء القوة فعاد الماء سيرته الأولى "٠

بمعنى آخر لقد آمن المصريون بالسحر كقوة قادرة على حمايتهم وعلاج أمراضهم وتحقيق مطالبهم، وكانوا يؤمنون بقدرة الكلمات على فعل السحر، وأخذ هذا عنهم اليهود٠

٥- من ملك الديار المصرية من أول الزمان

ومن هم الفراعنة أو الأقباط وهل لهم علاقة بالمصري المعاصر

في " موسوعة أساطير العرب " الجزء الثاني - تأليف الدكتور محمد عجينة:

" اعتقد البعض أن العرب ليس لهم أساطير كما هو الشأن بالنسبة إلى سائر الأمم والشعوب وهو وهم نجد صداه إلى عهد غير بعيد، أو أن أساطيرهم مستوردة. والحال أن المتبحرين في هذا الميدان والمبرزين منهم يشهدون بأن الأساطير دائمة الهجرة والترحال وأنها تتلون دوماً بلون الحضارة التى بها تحل وإليها تفد حتى ليغدو من الصعب بل ربما من المتعذر القطع بصحة نسبتها إلى بلاد بعينها "٠

وفى فصل «التاريخ والزمن الأسطوري عند الشعوب القديمة» يستكمل وجهة نظره:

" معظم الشعوب القديمة - مثلما تدل على ذلك مختلف البحوث المقارنة في تاريخ الأديان والأساطير - قد نظرت إلى مؤسساتها وتاريخها نظرة

«دورية» تسقط الطبيعة على الثقافة ٠ نظرة التاريخ فيها عود على بدء ومحاكاة واستلهام لمثل عليا أو نماذج أصلية قديمة مفارقة اقترنت بأعمال شخصية فذة من بنى أو سلف من الأسلاف الأقدمين أو شخصية نموذجية "٠

" ولنا أن نتساءل هل شذ العرب القدامى عن هذه القاعدة وهم يدونون تاريخهم ويحفظونه من التلف في وقت أخذوا فيه زمام المبادرة التاريخية في العالم ؟ ٠٠٠ نحن إلى القول بعكس ذلك أميل ؛ أي إلى أنهم نظروا في تاريخهم عبر حاضرهم بل وكذلك عبر تصور ماضي البشرية السحيق ونماذجه البطولية، وأن ذلك التصور للماضي قد ارتد إلى الحاضر في عملية جدلية أخرى صار معها فاعلا فيه مشكلاً له، ولذلك فنحن واجدون في مستهل كتب التاريخ الإسلامية تصورين متفاعلين :

أولهما، تصورهم لتاريخ الخليقة وظهور المؤسسات الإنسانية على وجه البسيطة على مر الأزمان إما منذ آدم أو منذ نوح والطوفان وتوزع أبنائه في البلدان وأقاليم الأرض ٠

ثانيهما، تصورهم لماضيهم أي لتاريخ العرب سكان الجزيرة وأصل القبائل وأنسابها وهجراتها وتنقلاتها وأيامها ومآثرها أو ما حل بها من الويلات ٠٠

بحث الدكتور عجينة المهم هذا يضع كل تصورات المؤرخين العرب في إطار الأسطورة وهو الأمر الذي انعكس على رؤيتهم لتاريخ مصر في موضعين حاسمين، في نظرهم الأول حين سكن أبناء قابيل وعمهم شيث مصر في أول الزمان، والثاني عندما منح نوح أرض مصر لأحفاد حام بعد الطوفان.

في فصل " نماذج من أساطير المجال السامي ودلالاتها الرمزية " وتحت

المقطع " رمزية قابيل وهابيل صراع الراعي والفلاح "، أطاح بهما عندما كتب:

" ليس في القرآن الكريم أي ذكر لقابيل أو هابيل، كما أنه خالٍ مما نجده في كتب أهل التفسير وقصص الأنبياء ··· فهي مستقاة من الإسرائيليات المستمدة هي الأخرى من تراث الساميين". "ومهما يكن من أمر فأسطورة قابيل وهابيل بمختلف رواياتها ومصادرها ورموزها تؤسس بداية مجموعة من الحقائق البشرية والمؤسسات الإنسانية منها اكتشاف الجنس والموت وظهور الطقس. والطريف أن معنى الصراع الذي يتخللها في جميع رواياتها قد تنوع بحسب الحضارات التي احتضنتها ··· فبينما تنتهي الأسطورة السومرية بانتصار الأخ المزارع، ينتصر الراعي في الأسطورة العبرية.

وهذا يطابق طقس التضحية فبينما يضحي إبراهيم بإسماعيل عند العرب، نجده بضحى بإسحاق عند اليهود ·

أسطورة الطوفان جاءت مطابقة أيضاً لأسطورة جلجامش التي سبقتها بآلاف السنين.

كتب فراس السواح في كتابه «قراءة في ملحمة جلجامش» وملحمة جلجامش مثال على الخلود للعمل الفني الذي يتجاوز الزمان والمكان. بعد أربعة آلاف عام من تدوينها في بلاد الرافدين يقرؤها البشر في شتى الثقافات في أربعة أركان المعمورة اليوم "·

وحتى اسم " نوح " الذي ارتبط بالطوفان جاء محوراً لاسم الإله " نو " المصري " الذي يمثل التجمع المائي العميق الذي لا حدود له، وانبثقت منه

السماء والأرض وكل ما هو حي، والذي اشتمل منذ البدء على البذور الأساسية لكل شكل أو نوع من أنواع الحياة "٠

الدكتور عجينة بعد عرضه لأساطير اليهود وتحليلها يصل إلى نتيجة:

" وبناء على ما ذكرنا يمكن القول إن تلك الأساطير في المجتمع وظيفة تأسيسية فهي تتحرك باعتبارها رموز حُمّلت في نظام الثقافة العربية الإسلامية بمضامين جديدة تراكمت على القديمة " أو بمعنى آخر استُخدمت من أجل ترويض الشعوب المغلوبة ذات الحضارات المندثرة.

ولكن هل استسلم المصريون !!

في كتاب " عيد النيروز أقدم عيد لأقدم أمة " تأليف أغنسطس نبيل فاروق كتب الأنبا متاؤس أسقف دير السريان العامر في مقدمته:

" ومازالت الكنيسة القبطية التي هي الكنيسة المصرية الأصلية تحتفل بعيد النيروز رأس سنتها القبطية وبدء تاريخ شهدائها الأبرار. تحتفل به ١٦ يوماً من أول توت حتى ١٦ توت، وتصلي بالألحان الفرايحي مبتهجة ابتهاجاً روحياً بهذه المناسبة السعيدة، وتكرر في كل صلواتها عبارة (بارك اكليل السنة بصلاحك يارب) ".

" وتكلم عن توت الإنسان المصري النابغة العظيم الذي رفعه قدماء المصريين إلى مصاف الآلهة وسموه إله العلم والقلم ولأنه هو الذي وضع التقويم المصري لحساب الشهور والسنين والذي اشتهر بدقته وانضباطه ٠٠٠٠٠ احتفالات مصر بعيد النيروز في كل العصور حتى وقتنا الحاضر بصفته عيد مصري قديم وقيمة وطنية مرتبطة بالنيل وبحياة

المصريين ارتباطاً حميمياً لا يمكن التفريط فيه خصوصاً أن المصريين معروف عنهم أنهم أصحاب قيم خالدة وموروثة تجرى في دمائهم وعروقهم ".

د٠ جمال حمدان يؤيد هذا في كتابه «شخصية مصر» الجزء الرابع، الفصل الثاني والأربعون، بعنوان " الاستمرارية والانقطاع ":

" فما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها دون أن يصر في إلحاح على عنصر الاستمرارية في كل مقوماتها ومقدراتها ابتداء من الأرض إلى الناس ومن الجنس إلى الاقتصاد ومن أعلى النظم السياسية والاجتماعية إلى أصغر دقائق وتفاصيل العادات والتقاليد اليومية بل والأمثال والمأثورات الشعبية٠"

ولنبدأ بأسماء القرى والمدن " كتب كل من أميلينو ومحمد رمزي قاموساً جغرافياً كاملاً فكثير جداً من أسماء قرانا قد لا نجد له معنى مفهوماً بسهولة، ومهما امتد الخيال يتعذر تصور أصول عربية له، وفى الوقت نفسه لن نخطئ رنينه الفرعوني ومقاطعه الهيروغليفية والأمثلة يقيناً بالآلاف وكل حالة تحتاج إلى تحقيق على حده، لكن تكفي عينات عشوائية ، خذ أولاً: بيهمو ٠ سنرو ٠ تزمنت ٠ أشمنت ٠ منتوت ٠٠٠ اسطال ٠ سيلين ٠٠ قيديمين ٠٠٠ أو اعتبر مجموعة المقطع شبرا بمعنى تل وتحريفاً عن شبرد ثم طوخ (طوخ الملق ٠ طوخ دلكه ٠ طوخ طنبشا ٠٠٠)

أما في السياسة ونظام الحكم " لا شئ يقيناً ككلمة الفرعونية يلخص ويُشَخِّص مأساة مصر السياسية المستمرة بلا انقطاع طوال التاريخ والمجسدة

بلا حياء في حياتنا المعاصرة. فلقد صارت هذه الكلمة التعسة (السيئة السمعة) علماً على الطغيان المصري البشع البغيض في كل مراحله حتى وإن احتفت التسميات والمسميات أو تطورت الأشكال والشكليات، فالسلاطين والمماليك في العصور الوسطى هم كما أوشك المقريزى يضعها فراعنة ولكن مسلمون ٠٠٠٠ إن الفرعونية بوضوح مطلق الآن هي لا شك أبرز، مثلما هي أسوأ مظاهر الاستمرارية في كيان مصر جميعاً٠

أما العلاقة بين الحاكم والمحكوم فهي تقليدياً علاقة قهر ومقت، إكراه وكره، استبداد وحقد. بينما العلاقة بين الحكومة والشعب هي الريبة والعداوة المتبادلة بكل التفاهم الصامت ٠٠٠٠"

" وهكذا بقدر ما كانت مصر تقليدياً ومن البداية إلى النهاية شعباً غير محارب جداً أو إلى حد بعيد في الخارج، كانت مجتمعاً مدنياً يحكمه العسكريون كأمر عادي في الداخل، وبالتالي كانت وظيفة الجيش الحكم أكثر من الحرب ووظيفة الشعب التبعية أكثر من الحكم ٠٠٠٠٠٠"٠

أما من الحياة اليومية " فكثيراً من العادات والتقاليد والممارسات والطقوس وكذلك من المعتقدات والأفكار وحتى الخرافات والأساطير عدا الألفاظ والأمثال، فضلاً عن الاحتفالات والأعياد، انحدر إلينا من مصر القديمة وظل حياً لآلاف السنين دون تغيير أو تحوير أو إضافة أحياناً ٠٠٠٠ عيد وفاء النيل وعيد الغطاس وشم النسيم ٠

إن عيد الغطاس هو أساساً الاحتفال بموت وبعث أوزوريس في الأسطورة

الفرعونية وبالتالي يُعتبر عيداً مصرياً بحتاً وقبطياً خالصاً ٠٠٠٠٠ وفى هذا المجال لعل أشد وأغرب مظاهر الاستمرارية مهرجان سيدي أبو الحجاج السنوي بالأقصر في رمضان، فهو يكرر في طقوسه مهرجان الإله آمون السنوي بطيبة بحيث يكاد يكون نسخة إسلامية من الأصل الفرعوني ٠

كذلك الأمر في الأكلات والأطعمة الشعبية والوصفات الطبية والأدوية البلدية وعادات الزواج والولادة والأفراح (الحنة والصباحية ٠ النقوط ٠ السبوع) والمآتم والدفن وزيارة المقابر (خميس الميت٠ فطير الرحمة٠ الأربعين ٠٠٠) ٠

وهكذا يمكننا أن نقول بدرجة يقين أفضل بعد أن عرفنا تاريخنا أن المصري عاش على هذه الأرض منذ أن شكَّلها النيل في العصر الحجري وحتى يومنا هذا لعشرة آلاف سنة وأكثر، وأنه سلالة جنس أوروأفريقى نقية تتكامل مع باقي سلالات هذا الجنس المنتشرة على ضفاف حوض البحر الأبيض والتي تشير إليه بصفته الجد الأكبر لحضارتها بعد أن صنع أول نموذج باهر للدولة المركزية وشق الترع والمصارف وبنى وزرع وصنع وأبحر في النيل والبحرين المحيطين مهتدياً بالنجوم والكواكب ومُسخراً الرياح والأمواج مقدماً منظومة علمية في الطب والتحنيط والهندسة والفنون ٠

إن مصر كانت دوماً مركزاً حضارياً جاذباً للشعوب المجاورة فتسللت إليها براً وبحراً مهاجرة أو متاجرة أو غازية ناهبة سالبة وكان هذا سبباً في تخصيب حضارتها وقوتها وأيضاً في كسوف تلك الحضارة وأفولها لألفي وخمسمائة سنة منذ أن غزاها الفرس فاليونان

فالرومان فالعرب فالأتراك فالأوروبيون ٠

الفرس حرصوا على ألا تقوم لها قائمة فتخرج من حلبة المنافسة والتهديد، واليونان سكنوها فاختلطت الثقافتين وأزهرت الإسكندرية وزهت بمكتبتها وجامعتها، أما الرومان فحولوها إلى سلة للغلال وأسقطوا شعبها من الداخل ليعاني ذل وهوان الاستعمار والاستلاب ويبتعد عن حضارته ولغته ودينه ٠

الاستعمار الروماني برغم قسوته واجه صراعاً ضارياً من المصريين دفاعاً عن مسيحيتهم، ضحوا فيه بالشهداء، وأكسبوها اسمهم فأصبحت قبطية يدين بها قبط أي مصريين ٠

عندما جاء العرب بثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل فقط، جاءوا أيضاً حاملين التراث السامي اليهودي الذي يحتم على أبناء حام المصريين خدمة أبناء سام (عرباً أو يهوداً أو أتراك). واستسلم المصري المسحوق بواسطة الرومان ، المبعد عن تاريخه وتراثه وفكره وحضارته لادعاءات التفوق "السامي " فيما يشبه الانفصام النفسي. لقد كان عليه وهو ابن للفراعنة أن يلعن أجداده ويؤمن بتفوق عبيدهم عليهم ويتمسك بقصص وأساطير سرقها العبيد من السادة وادعوها كبديل لعجزهم عن مواجهة حضارة ساحقة ٠٠ ونخر السم المدسوس في العسل عقل وقلب الأمة بعد أن تاهت عن أصولها ٠

و الآن بعد أن زالت الغشاوة، و أبصر المصري وعرف أنه من بلد تسمى كيميت.. هل سقطت الإسرائيليات؟! لهذا قصة أخرى ٠

ثالثاً : طلسمات تاريخية

دروس الانهيار

أ- " الفراعنة ملوك وكهنة " في ألف عام (١٥٠٠ ق٠م- ٥٠٠ق٠م)

إذا تأملنا المنحنى البياني للحضارة المصرية، سنجد أنه يلخص بشكل أو آخر مستويات ودرجات الصعود والهبوط لقدرات الشعب المصري على الفعل والتأثير على مجريات الأحداث في عالمه المحيط عبر ستة آلاف عام ؛ فسنجد أن الدولة المركزية التي أسسها ملوك الأسرة الأولى حول عام ٣٤٠٠ ق٠م وازدهرت لألف عام وأنتجت فيها أخلد عجائب العالم القديم قد بدأت تتفكك إلى إمارات ودويلات بينها نزاعات وصراعات أدت فى النهاية إلى أن يغزوها رعاة الشرق ويسيطرون على أغلب أراضي الوجه البحري لقرنين من الزمان ٠

وكان هذا هو الدرس الأول لحكام مصر فى ذلك الزمن البعيد عندما استوعبوه **وتوحدوا وطوروا من أسلحتهم باستخدام العربات الحربية القادمة مع الغزاة، ونظموا صفوفهم مستوعبين دروس الهزيمة.** استطاع ملوك الأسرة الثامنة عشر أن يعيدوا صياغة مراكز القوة في المنطقة ليصبح تحتمس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٧ ق٠م) " أول رجل في التاريخ أسس إمبراطورية حقيقية، فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعالي الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ومستنقعات بابل وشواطىء ليبيا السحيقة وواحات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا ٠ زد على ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا فى تأدية جزيتهم

وهداياهم إليه، ويُعتبر هذا برهاناً ساطعاً وتذكاراً عظيماً على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة "٠ كما ذكر برستيد في تاريخ مصر من أقدم العصور ٠

إمبراطورية تحتمس الثالث حكمها بعد ذلك " ملك خيالي فيلسوف " كان كالكهنة أكثر منه ملكاً. فإخناتون لم يكن يشغله أبداً الحفاظ على الإمبراطورية قدر مطاردة كهنة آمون والأديان الأخرى وإحلال ربة آتون مكانها جميعاً حتى أنه هجر العاصمة ومحى أسماء الآلهة من معابدها وقام هو وزوجته نفرتيتي بإرساء طقوس جديدة غير تلك التي اعتاد عليها المصريون وكهنتهم لآلاف السنين ٠ فلم ينجح الملك أن يكون كاهناً ولم ينجح الكاهن أن يكون ملكاً فسقط وسقطت معه الإمبراطورية **ليتعلم المصريون درسهم الثانى وهو الفصل بين الدين والحكم ٠**

لم يكن ما أحدثه إخناتون من فوضى حدث عابر في التاريخ المصري، فلقد كان له آثاره التي انفجرت بعد ذلك لغماً بعد لغم ٠

فالإله آمون الذي كان يرتضي أن يشاركه آلهة أخرى مثل رع أو بتاح، فكان يقرن اسمه بأسمائها مثل آمون - رع أو آمون - بتاح، صار بعد أن قام إخناتون بثورته لصالح ربه آتون يصر على أن يتمثل به ويقصي باقي الآلهة ليصبح الأوحد والأقوى في التاريخ المصري على الإطلاق وبالتالي نال كهنته القوة والثروة والنفوذ بعد أن مكَّنهم أول ملوك الأسرة التاسعة عشر حور محب من ثروات الإمبراطورية وأراضي مصر ٠

فلنستمع إلى أدعية نفر حتب " ما أجمل عقيدة الشخص المؤمن بهبات آمون ملك المعبودات ، لا شك أن كل من يعرفه عاقل، و أن كل من يخدمه سعيد

الحظ، لأن كل من يتبع هذا المعبود يحميه " .

" الويل لمن يعتدي عليك يا آمون. إن بلدك يحتمل كل شئ إلا المعتدي عليك فإنه يذله ... النقمة على كل من يسيء إليك في أي مكان .. كل من يعرفك تبقى شمسه شارقة، أما من يجهلك فشمسه آفلة .. لقد أصبحت معابد من اعتدى عليك في ظلام وعم النور أنحاء المعمورة ".

وهكذا عندما حاول حور محب أول ملوك الأسرة التاسعة عشر إصلاح الخلل الذي أحدثه إخناتون، كان عليه أولاً المرور بكهنة آمون وتدعيمهم وإرجاع فضل إحكام القبضة على أنحاء الإمبراطورية لإلههم ولهم .. وبالتالي الحصول على جانب كبير من العوائد .. سيتي الأول سار على الدرب فأفاض في منحهم الهبات ولكن أياً منهما لم يصل أبداً لما فعله رمسيس الثاني المشهور بتماثيله ومعابده فلقد زاد في تدليلهم إلى الحد الذي جعلهم يؤلفون له حروباً وانتصارات ومعارك وهمية خاصة تلك التي تقص معركة قادش التي تشكك الأبحاث الحديثة في إمكانية حدوثها وبالصورة التي صورت بها .

بمرور الوقت زاد نفوذ الكهنة " أما الحمية التي تولدت في نفوس المصريين إثر غزو الهكسوس فقد انعدمت بل صارت في خبر كان واستعيضت الآن بعقائد فاسدة دينية وسحرية، وهكذا تغلب الجهل والضعف على الحكمة والروية، ومن ذلك الوقت سارت سفينة السياسة المصرية في طريق أعوج خطر يُفضي إلى الدمار لأن السلطة التنفيذية أخذت تخضع تدريجياً للسلطة الدينية فلم تعد هناك صعوبة على رئيس كهنة آمون أن يغتصب الملك وينفرد بالحكم ".

وهكذا مع نهاية الأسرة التاسعة عشر (١٢٠٠ ق٠م) بدأت الفوضى ودامت خمس سنوات ثم تتابع ملوك الأسرة العشرين الرعامسة وانهارت الإمبراطورية بل حاصرت الأخطار البلاد من كل جانب مما دعا الملوك إلى استخدام جنود مرتزقة من ليبيا واليونان ثم استولى الكهنة على الحكم بواسطة المرتزقة واستولى المرتزقة على الحكم منهم وكأننا نشاهد عصراً مبكراً للمماليك دام حتى الغزو الفارسي الذي أنهى على الأسرة السادسة والعشرين عام ٥٠٠ ق٠م٠

فترة الألف عام التي تعرضنا لها تطرح أمامنا العديد من التداعيات و أكثر من سؤال في درس الانهيار ٠

فالنظرة الأولى - والتي قد تحتاج إلى دراسة أعمق - توحي بأن بداية انهيار إمبراطورية تحتمس الثالث جاء بسبب أن ملكاً تالياً له نصف كاهن نصف فيلسوف تخيل نفسه نبياً وراح يبشر بدينه الجديد ويدير صراعاً مع كهنة الأديان الأخرى لفرض ربه وأفكاره متخلياً عن أصول الحكم التي أفرزها مجتمعه عبر ثلاثة آلاف سنة سابقة ففشل في أن يكون ملكاً وفشل في أن يكون نبياً . ولكن في الحق لقد استطاع حور محب وبعض من تلاه من ملوك أن يوقفوا النزيف ويستردوا بشكل أو آخر إمبراطوريتهم - أقصد حرباً أو سلماً - ما أضر بالإمبراطورية حقاً هو ضعف ما انتاب هؤلاء الملوك تجاه كهنة آمون فبالغوا في تدليلهم مما زاد من سعارهم ولم يكتفوا بهبات الملوك بل طمعوا في أن يكونوا هم أنفسهم ملوكاً ٠٠٠ نفس ما حدث بعد ذلك في أوروبا عندما أدى ضعف ملوكها لحصول رجال الكنيسة على سلطات غير عادية أدت الى

محاكم التفتيش وصكوك الغفران ومطاردة العلماء. الفارق أن هذا لم يؤدي لانهيار أوروبا بل إلى صعودها بعد أن تعلمت الدرس وفصلت الدين عن الدولة بحسم. أما فى مصر فقد أصبح الكهنة ملوكاً وعندها اكتشفوا أن آمون لم يبني الإمبراطورية ولم يحارب الأعداء ولم ينتصر ولم يحصل على الجزية والهدايا والسبايا والعبيد التي ظلت تتدفق على طيبة طالما كان يحكمها من يتقن فنون الحكم ٠٠٠ فى محاولة لسد العجز استجلب الكهنة الملوك المرتزقة ليحاربوا بدلاً منهم فأضاعوا الإمبراطورية، وأضاعوا مصر، وأضاعوا آمون نفسه.

فى كتابه " صعود وسقوط القوى العظمى " كتب بول كنيدي ما ترجمته: «ماذا يعود على أمة زودت جيشها بأفضل المقاتلين إذا كان يحكمها حكومة تنفق بشكل ثابت ضعف أو ثلاثة أضعاف دخلها " ثم حدد أن سبب انهيار معظم إمبراطوريات الماضي والحاضر كان " أن الحكومات تنفق على التزاماتها الخارجية ما تنوء به قدراتها الاقتصادية " ونحن لا نعرف بالضبط ما هي ميزانيات الحكومات المصرية في ذلك الزمن أو مقدار ما كانت تنفقه على التزاماتها الخارجية، ولكن نعرف أمرين أولهما أنه في زمن ازدهار الإمبراطورية كان تحتمس الثالث قبل غزواته الثماني يأمر حُكَّام الأقاليم التي سيصلها الجيش بتخزين مؤن هذا الجيش من أكتوبر حتى نهاية موسم المطر السنوي ثم يبدأ في التحرك بعد أن يطمئن إلى أن احتياجاته متوفرة، أما الأمر الثانى فإن إنفاق كهنة آمون و إهدارهم الطاقة والوقت كان يفوق الحد الطبيعي "على أنهم قد خصصوا للاحتفالات الدينية وتنفيذ الفروض العقائدية المتصلة بعبادة الأرباب

قـدراً عظـيـمـاً من الوقـت الذي امـتص طاقــة الأمـة، فـإذا أضـفـنا إلى ذلك الاحتفالات الجنائزية وطقوس تـخليد الموتى التي يؤدونها في المدافن، فإننا لابد وأن نعذر الزائر العابر عـندما يُعلن أن المصريين أمة من الرجال المسـتنزفين كلية لعبادة الحيوانات وأداء طقـوس الموت " سير والاس بدج.... وهكذا كان الحال قبل سقوط طيبة في يد الفرس ٠

ب- ألف عام أخرى مع " الفرس - اليونان - الرومان " (٥٢٥ ق.م - ٦٠٠م).

الفـــرس:

«ظهرت دولة الفرس الفتية في الأفق وأخذت تمد سلطانها على كل الأقطار المتمـدنة وكانت مصر وقـتئذ خـارجة من حروب داخليـة طاحنة أنهكت قواها وأضعـفت قوتها الحـربية ، فأصبـحت الفرصة سـانحة أمام الفـرس ٠٠٠ فلما تولى قمبيـز عرش ملك فارس قام بحملة على مصر واستـولى عليها عام ٥٢٥ ق٠م».

لم تكن هذه أول محـاولة لغزو مصر من دول الشـرق فقد سبقـه آشور بني بال عام ٦٦٧ ق٠م وطرده المـصريون ؛ فلم تكن مـصر ذلك الزمن قـد انهارت الانهيار الكامل بل كـانت لا تزال "أم الحضارات والعلوم يفد إليها جـمع غفير من طلاب العلم والمعرفة ينهلون من حيـاضها وينقلون إلى بلادهم ما تعلموه " وكـان قـد " تدفق على مـصر الجنـود المرتزقـة من بلاد الإغريـق وكاريا بآسـيـا الصـغرى وقـد عـرف هؤلاء الجنود بشـجاعـتـهم ومهـارتهم في فنون الحـرب والتسلح " لذلك كـان من الطبيعي أن يواجه الفـرس " نضالا ظل مستـمراً سراً

وعلانيـة حتى عام ٤١٠ ق٠م، حـينما هبت ثورة عنيـفة انتهت بنصـر المصريين على الفرس وطردهم عام ٤٠٤ ق٠م "٠

الفرس والإغريق في ذلك الزمن كان بينهما صـراع ضاري أخذت فيه مصر جانب الإغريق ". ومن ثم قـامت علاقات وطيدة نسبياً بين مـصر و بلاد اليونان أساسها مناهضة الفرس ". عندما انتصر الفرس على الإغريق عادوا لغزو مصر ثانياً عام ٣٤١ ق٠م ثم عام ٣٣٦ ق٠م ٠

حتى قاد الإسكندر الأكبر جيوشه " فـاجتاح كل إمبراطورية فارس. وعندما وصلت جيـوشه في زحفهـا إلى أبواب مصر، سَلَّم له الشعب المصـرى تخلصاً من النير الفارسي عام ٣٣٢ ق٠م "

كَتَبَ سليم حسن في كتابه «مصر القديمة» الجـزء الثالث عشر " قمبيز عمل جهده لإعداد العدة لذلك ٠٠٠ فحـصل على مساعدة بدو خليج السويس وقد ضمن لـنفسه وجـود قاعـدة قوية انقض منهـا على الحدود المصـرية بالتـصريح لليهـود ببناء معبد أورشليـم، وفضلاً عن ذلك نجد أن الفـرس قد اكتسـبوا إلى جانبهم عواطف الجنود المرتزقة اليهـود الذين كانوا في خدمة الفرعون " ٠٠٠ " وكان رئيسـاً من رؤساء الجنود المرتزقة الذين كانوا في خدمـة الفرعون، وانضم إلى معسكر قمبـيز، قد اطلعه على أسرار كل الترتيبات الـتي وضعها المصريون لمقاومة الفرس "٠

الاحتـلال الفارسى لمصـر ثم مقاومـتهم فطردهم فـإعادة الاحـتلال وتكرار الطرد والاحتلال يدعو إلى التأمل.

" فبعـد أن سيطرت مصر منذ نهايـة باكورة القرن السادس عشـر قبل الميلاد

حتى بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد بوجه عام على كل العالم المتمدين ونشرت علومها وحضارتها في معظم الأقطار التي تدين لسلطانها أو تتصل بها ٠٠ جاءت عوامل الوهن والضعف والدعة وأخذت تدب في أوصال الشعب المصري عندما جنح أبناؤه إلى حياة الترف ومن ثم أخذت تظهر بوادر الاضطرابات والفتن السياسية والدينية في أرجاء الإمبراطورية مما أدى إلى انحلالها وتفكك أوصالها، فلم يسع الفراعنة أمام تلك الحالة المنذرة بكل خطر إلا استعمال الجنود المرتزقة لقمع الفتن وحماية البيت المالك نفسه " .

درس يتكرر دائماً أي تفسخ الإمبراطوريات التي تكونت بواسطة جيوش متحمسة تعاني من ضيق في أوطانها فتسعى لتخضع من كان حظه العاثر قد جعله جاراً لها ٠٠ وعندما يستقر بها المقام توهنها حياة الترف لتجتاحها جيوش أخرى أكثر حماساً ٠٠ ولكن هل ينطبق هذا على مصر ٠٠ إن مصر نفسها كانت دائماً مطمعاً للوحوش المحيطة لما تنتجه من خيرات يسيل لها اللعاب فكيف نطبق عليها القانون نفسه ٠٠ في الأغلب هو مستوى آخر فالبدوي الذي يترك الخيمة ويعيش في منزل مبني من الطين قد يعتبر هذا المكان قمة الرفاهية أما ذلك الذى يعيش في نفس المنزل فإن رفاهيته أن ينتقل إلى مبنى بالحجر.. وهكذا فرغم خير مصر والذى تجمع في النهاية في أيدي الكهنة والأرستقراطية الإقطاعية ٠٠إلا أنه لم يكن يكفي لإسرافهما أو فلنقل أن غنائم إمبراطورية تحتمس نقلتهم إلى مستوى آخر من الرفاهية لا يمكن تصديقه إلا عندما تقرأ علامات الدهشة والانبهار في خطابات الرحالة الذين زاروا مصر في ذلك الزمن أيام كانت إمبراطورية تحتمس أول إمبراطورية مجال حيوي في التاريخ

بمعنى كسب أرض محيطة للدفاع عن الوطن !!

عموماً الاسترخاء الزائد وتدليل الكهنة وترك الحبل على الغارب لطقوسهم واحتفالاتهم وإسرافهم ٠٠ ثم الاستعانة بالمرتزقة جعل من مصر صيداً سهلاً لوحوش شابة جديدة ٠

أما خيانة البدو والمرتزقة واليهود فستكون نغمة مصاحبة لنا دائماً خلال رحلتنا لاستيعاب دروس الانهيار ٠

اليـــــونان :

الترحيب الذي لاقاه الإسكندر الأكبر عندما طرقت جيوشه أبواب مصر عام ٣٣٢ ق٠م كان سببه أن هذا الشاب كان يمثل لكهنة آمون المخرج من الأزمة التي أوقعوا أنفسهم فيها ٠٠ فلقد كانت عبادة آمون آخذة في التقلص والضعف بعد أن ضعف الملوك الحامين لها ٠٠ وبدأ الشعب يتجه نحو ديانات أخرى أوزيريسية في الأغلب والإسكندر الشاب كان قد قدَّم نفسه على أساس أنه ابن لزيوس كبير الآلهة الإغريق ويرغب في أن يكرر هذا في مصر ٠

وبالتالي التقت الرغبتان، الإسكندر يعلن نفسه ابناً لآمون والكهنة يصدقون على ذلك فتخضع مصر له كما خضعت للفراعنة الذين سبقوه ويكتسب آمون وكهنته القوة بعد أن أصبح ابنه فرعوناً جديداً قوياً ٠ وهكذا.

" أمضى الإسكندر بعض الوقت في منف حيث توج ملكاً على مصر في احتفال عظيم قدم من خلاله ضحايا فاخرة للآلهة عامة كما قدم قرباناً للعجل آبيس، وأقام مباريات رياضية وموسيقية ، وأحضر من بلاد الإغريق أشهر

المغنين. بذلك أظهر الإسكندر نفسه في دور من يرغب في التقريب بين الشرق والغرب "٠

مدينة الإسكندرية أسسها لهذا السبب أيضـاً لتصبح يد الشرق الممدودة عبر البحر الأبيض في اتجاه الإغريق وهو الدور الذي سنلقي الضوء عليه بعد ذلك٠

وزار معبد آمـون بسيوة فحصل على ما أراد فقـد اعترف به تمثال الإله ابناً له وعاد من هناك فرعوناً مـصرياً إغريقياً ٠ أما كهنة آمـون فيبدو أنهم راهنوا على حصان جامح تركهم وانطلق لاستكمال صنع إمبراطوريته ٠

العلاقة بين الإغريق ومصر كانت علاقة أقدم من ذلك الزمن الذى نتصفحه الآن عن جمـال حمدان «شخـصية مصـر» الجزء الثاني " وفي أخريات العـصر الفرعـوني حين أخذت بعض الأسرات تعـتمد على الجـنود المرتزقة ازداد تدفق الأجانب خاصـة من حوض البحر الأبيض الشـرقي وجزره وبالأخص الإغريق الذين يرقى ظهـورهم إلـى القـرن ال ٦ ق٠م على الأقل أي لثـلاثة قـرون قـبل الإسكندر والذين أقامـوا بصفـة أساسيـة فى مدن الدلتا وتحت الأسـرة ٢٦ كان بسماتيك أكبـر من شجع اليونانيين على الهجرة إلى مصـر لمساعدته في حروبه الداخليـة ومنح الجنـود منهم الأراضي يزرعـونهـا وسَـهَّل للتـجـار منهم سُـبُل الإقامة"٠

" التـسلل الإغريقى لم يلبـث أن تحول إلى غـزو فإلى هجـرة مع الإسكندر نفسه والبطالسـة من بعده، فكما «يذكر جـوجيه» شهدت مـصر في القرن ال ٣ ق٠م هجرة يونانية قوية وحقيقية ٠

ولقد تراخت هذه الهجـرة بعد ذلك في أواخر العصر البطـلمي، لكن بعد أن كانت

قد حققت حجماً مؤثراً بالفعل وتحولت إلى استعمار استيطاني لا شك فيه " ٠

تأثير الاستعمار الاستيطاني اليوناني على واقع المجتمع المصري تجلى خطره الأكبر فيما حدث بالنسبة إلى لغة المصريين، فالطبقة الحاكمة البطلسية كانت تتكلم وتكتب اليونانية ، وأصرت على أن تكون المعاملات مع الحكومة بتلك اللغة ٠٠ على الجانب الآخر كان المصريون يتكلمون ويكتبون الديموطيقية. في البداية كانت الوثائق تكتب باللغتين ثم انكمشت الديموطيقية بعد أن استعان المصريون في كتابة عرائضهم بالمترجمين وأهمل تعلم الديموطيقية ". فلقد كانت على جانب عظيم من الصعوبة والتعقيد وبخاصة عندما نعلم أن تكاليف الحياة القاسية في ظل الحكم البطلسي لم تكن تسمح للطبقة الدنيا من المصريين أن يتعلموا القراءة والكتابة "٠ رويداً رويداً حلت لغة الحكومة محل لغة الشعب حتى ذلك اليوم الذي لم يعد أحد من أهل مصر يستطيع قراءتها وإن كانوا يتكلمونها ٠

أدى هذا إلى ما يشبه الانفصام والذى أصبح بعد ذلك سمة من سمات المصريين حتى زمن قريب عندما كانت الأرستقراطية المصرية تتكلم بالتركية أو الفرنسية أو الإنجليزية في حين أن الشعب يتكلم بالعامية المصرية ٠

وهكذا لم يعد لمصر " أداة إيضاح صالحة تهيىء لها مخاطبة العالم خارج حدودها مباشرة، فلقد كانت الهيروغليفية والديموطيقية لغة ليست بالبساطة التي تسمح لها أن تكون عالمية "٠

أي أنه تاريخياً أصبحت الطبقة الحاكمة البطلسية قادرة على توصيل مقالها في حين سكت الصوت المصري ٠

مقال الطبقة الحاكمة اليونانية احتوى على إنجازات مدينة الإسكندرية التي أصبحت موطناً جديداً للعلوم وتأسس فيها " الميوزيون " أي أكاديمية العلوم " وكان من نتائج ذلك النمو العظيم في علوم الرياضة والميكانيكا والفلك والطب " ورغم أنها قدمت باليونانية إلا انها كانت أساساً مصرية تم ترجمتها لوضع دور مصر في تاريخ علوم العالم في الظل ٠

اليهود في ذلك الزمن قاموا بدور ملحوظ في تعميق الانفصام ٠٠ فلقد هاجروا بأعداد كبيرة في اتجاه الإسكندرية ٠٠ وتكلموا باللغة الإغريقية بل أصدروا أول توراة مجمعة لهم باللغة اليونانية هناك ٠٠ وتسموا بأسماء يونانية وعملوا في جميع الأعمال العقلية والذهنية والتجارية مُنحِّين المصريين مُقدمين أنفسهم للحكام كبديل ٠

أما المصري الفلاح الذي أطلق عليه الإغريق اسم " لاوي " أي الطبقة الدنيا أو الكادحة فقد كان لا يعرف القراءة والكتابة بأي من اللغتين الديموطيقية أو اليونانية ولكنه ظل مصرياً أي مرتبطاً بالحلقات المستمرة منذ الماضي السحيق التي تربط أبناء الشعب بعضهم ببعض من حيث العادات والأخلاق والمحافظة على القديم، عاملاً في الأرض لتوفير نفقات إنشاء جيش و أسطول ضخم ومد الطبقات الحاكمة بأسباب الرفاهية والترف ٠ في مقابل آلهة هجين من اليونانية والمصرية مثل سيرابيس المزيج من أوزيريس وبلوتو أرباب العالم السفلي ٠

ومن ثم أصبح تاريخ الشعب المصري مجهولاً للعالم بصورة بينة إذا ما قورن بما نعرفه عن تاريخ مصر الهيلانستيكية ". ولا غرابة في ذلك فقد كان في أيدي الباحثين في تاريخ مصر الهيلانستيكية أكثر من ثلاثين ألف بردية إغريقية

خاصة بتاريخ الإغريق في الديار المصرية في تلك الفترة، في حين أن ما لدينا الآن من الأوراق الديموطيقية لا يتعدى الألفين وهذا العدد وإن كان في ظاهره قليل إلا أنه يُعبِّر عن الواقع مع ما كان لـلحكام الإغريق من قوة وسلطان في البلاد وما كان عليه أهل البلاد من ضعف واستكانة وانزواء وعدم مشاركتهم الإغريق في حكم البلاد "٠

وانطفأت الأضواء تدريجياً عن تاريخ مصر وحضارتها بعد أن أفقدت نفسها وسيلة التعبير عنها لغتها الديموطيقية ليظهر جنس جديد من المصريين منقطع عن كل ما كتبه الأجداد ٠

السؤال كيف سمح مثقفي تلك الأيام من مصريين بحدوث ذلك، بمعنى لو أنهم قد قاموا بما قام به أحفادهم بعد ستمائة سنة من تطوير للديموطيقية لتصبح قبطية " لكان لصوت الفكر رنين أكبر وانتشار أعظم وعمر أطول مما وصل إليه " ولاستمر التواصل التاريخي مفهوماً لدى الخاصة والعامة ولما حدث الانفصام التاريخي بين الشعب وحكامه والذي دام بعد ذلك ٠٠٠ ولكن هذا لم يحدث وتسبب في اضمحلال الحضارة المصرية القديمة وخفوتها وأصبح أهم درس في دروس الانهيار بالرغم من أن المصريين " قد استمروا يمارسون حياتهم القومية في ظل قانونهم الخاص بهم ويقيمون معابدهم على حسب قواعدهم وعاداتهم وتقاليدهم " لمدة تصل إلى ألف سنة حكمهم فيها الإغريق والرومان ٠

الرومـــــان :

كتب وول ديورانت في «قصة الحضار» المجلد الخامس، الفصل السادس:

" ولما جاء الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم، أجابهم القيصر وعلى شفتيه

ابتسـامة اللوم بقـوله : إلى متى ينجيكم مـجد آبائكم الأولين من مـوارد الهلاك التي توردونها أنفسكم "٠

وهكذا انقلب الحال في أربـعينيات ما قـبل ميلاد السـيد المسيح ٠ في مـصر أيضاً " أخـذت مصر تسـير بسرعـة في طريق الاضمحـلال وعجز ملوكـها عن الاحتـفاظ بنظامـها الاجـتمـاعي وأخذ مـجلس الشيـوخ الروماني يقـوي فيـها سلطانه ويملي عليها إرادته بل أنه أقام حامية رومانية في الإسكندرية ٠٠" ٠

كليـوباترا آخر ملوك البطـالسة " كـانت تدرك أن مصـر لم تعد قـادرة على البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ٠٠٠٠"

وبعيداً عن قصص الحب والغرام وصراع القياصرة على ملكة مصر.. «أبحر أسطول أنطونيو وكليوباترا في شهر سبـتمبر ٣٢ ق٠م إلى البحر الأيوني وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية ولم يكن أسطولاً بهذه القوة قد ظهر على متن البحر من قبل، وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف من المشاة واثنى عشر ألف فـارس أمدهمـا بمعظمـه أمـراء الشرق وملوكـه يرجـون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب لـلتحرر من نيـر روما، وعَبَـر أوكتافـيوس البـحر الأدرياوي بأربعمائة سـفينة وثمانين ألف مقاتل من المشاة و اثنى عـشر ألف فارس وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها، فلما كان اليوم الثـاني من شهر سبتـمبر عام ٣١ ق٠م، التحم الجـيشان والأسطولان عند أكتيـوم في الخليج الإمبراسي في معـركة من المعارك الحاسـمة في التاريخ، وبرهن أجربـا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط وكـانت سفنه خـفيـفة أسـهل وأخف حركـة من سـفن أنطونيـو الضخـمـة ذات الأبراج العـالية وقـد

أحرقت النار هذه السفن، إذ ألقى عليها بحارة أوكتافيوس مشاعل متقدة ٠٠٠٠ ورأى أنطونيو أن الدائرة قد دارت عليه، وأشار إلى كليوباترا بتنفيذ خطة الانسحاب التي اتفقا عليها من قبل، فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب ٠٠٠٠ " وهكذا عندما استدار أوكتافيوس بعد هذه الهزيمة إلى مصر في العام التالي، حاولت كليوباترا مفاوضته، وحاول أنطونيو قتاله، ولكن انتهى الصراع باحتلال الرومان لمصر عام ٣٠ ق٠م ٠

" ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الموفور ما كان يحلم به ٠٠ فجلس على عرش البطالسة وورث أملاكهم وترك في مصر حاكماً يدير شئون البلاد باسمه "٠

استعرت هذا المقطع المطوَّل من ول ديورانت عن معركة أكتيوما لسببين الأول أنه السرد التاريخي للحدث في حين أن الشائع بيننا هو السرد الأدبي ٠٠ والسبب الآخر هو إظهار مدى حجم الأموال التي كان باستطاعة الحاكم البطلمي إنفاقها وهو بالتالي يعكس حجم الأموال التي استنزفها ذلك الحاكم من الشعب المصري. واسمحوا لي باستعارة مقطع آخر من الباب الرابع والعشرين " مصر الرومانية " ٠

" كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة، لأن النيل يرويها ويغذيها لأنها أكثر بلاد البحر الأبيض قدرة على الاكتفاء بخيراتها فهي غنية بالحب والفاكهة تنتج أرضها ثلاث غلات في العام ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها، كانت تصدر الغلال والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية، ولكن يبدو أن المصريين رغم

هذه الأسباب أو لعلهم لهذه الأسباب لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كله - على حد قول يوسفوس - ذلك أن ثروتهم كانت تغري بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين "٠

بكلمات أخرى كان الغزو الروماني لمصر من أجل سلة غلالها ولم يكن من أجل السياسة أو العاطفة وهو الهدف الذي سنجده يتكرر بعد ذلك لموجة بعد موجة من موجات الغزو المتتالية٠ " لم تكن روما تُعد مصر ولاية تابعة لها بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده. وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة: مصر السفلى، ومصر الوسطى، ومصر العليا. وبقيت اللغة اليونانية في ذلك العهد هي اللغة الرسمية ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان، فقد كانت وظيفة مصر في الإمبراطورية أن تكون المورد الذي تستمد منه روما ما يلزمها من الحبوب ".

" وبقيت مصر في خارج الإسكندرية محتفظة بمصريتها عابسة صامتة وقلما اصطبغ فيها شيء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مصاب النيل، وحتى مدينة الإسكندرية نفسها التي كانت أعظم المدائن اليونانية أخذت في القرن الثاني بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية في أخلاق أهلها ولغاتهم ٠٠٠ وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠,٠٠٠ من جميع السكان للبلاد البالغ عددهم ٨,٥٠٠,٠٠٠ "٠ " وكان سكان المدينة خليطاً من اليونان والمصريين واليهود والإيطاليين والعرب والفينيقيين والفرس والأحباش والسوريين والليبيين والقليقيين والهنود والنوبيين ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريباً "٠

يحـدد " فـيـلو " أن أربعين بالمائة منهـم كـانوا من اليـهـود الذيـن يعـملون بالصناعـة والتجارة ٠٠٠ ولهم حـياة أخـلاقية مـضرب المثل في الاسـتقـامة إذا قيست إلى حياة السكان الوثنيين الشهوانية الطليقة "٠

ثم دخلت المسـيحـية مـصر أو كـما كـتب جمـال حمـدان " دخلت مصـر المسيحـية ٠٠ لم يكن ذلك إلا استجابة واسـتمراراً للتقليد الـديني العميق الذي تأصل في طبيعتـها النيلية الأساسية ثم هي لم تأخذ المسيـحية بلا تصرف بل في ترجمـة مصرية خاصة فـكانت القبطية هي النسخـة المصرية من المسيحـية وعند البعض أن هذه الترجمة ما هي إلا تعـبير عن الملاءمة بين الديانة المصرية القديمة وبين المسيحية الجديدة ٠٠٠ لقد مَصَّرتْ مصر المسيحية "٠

"ولقد لعبت مصر القبطية دوراً حاسماً في تاريخ المسيحية الأولى في أوروبا وخارجها حـتى قال البعض إن تاريخ المسيحية في القـرون الخمسة الأولى ليس إلا تاريخ الكنيسة القبطية، بينما قـال البعض الآخر إنه ما من بلد أثَّر في انتشار المسـيحـية بأعـمق مما فعلت مـصر، فلقـد كـانت كنيسـة الإسكندرية هى أولى وكبرى كنائس المسيحية قاطبة ومركز الأساس للاهوت في العالـــــــم"٠

" كثيراً من نظم ومراسم وتقـاليد الكنيسة في أوروبا اليوم بما في ذلك النظام الرعوي نفسـه ومراتب الهيراركية الدينيـة مقتبس من الكنيسـة القبطية ٠٠ ومن المؤثرات الجلية البـاقية للديانـة الفرعونيـة المصرية على المسيـحية العـالمية الغناء الديني والموسيقى الكنسـية والبخور بل وعلامـة الصليب نفسها كما يقـال تشبه علامة الحياة عند قدماء المصريين " ٠

الاضطهاد الروماني للمـسيحية في مـصر جعل المسيحـيين المصريين يهربون

بدينهم إلى الصحراء فنشأت الرهبنة والأديرة " فمنذ خرج الأب باخوم والأب أنطوان إلى الصحراء خرج كثير من المصريين من الوادي إلى أطراف الصحراء بل وإلى أعماق الصحراء بحثاً عن عزلة جغرافية يلجئون إليها من الاضطهاد الديني ويحافظون فيها على عقيدتهم فكانت الرهبنة هدية مصر القبطية إلى المسيحية الغربية " ٠

كتب الدكتور إسماعيل صبري في " نظرة مصرية على تاريخنا الحضري " في سلسلة المواطنة " لقد أقبل الشعب المصري على دين الناصرة إقبالاً ليس له نظير. من المؤكد أنه منذ القرن الثاني كانت أغلبية المصريين قد اعتنقت الدين الجديد وأول حملة إرهاب ضخمة ضد المسيحيين في مصر أمر بها الإمبراطور ساويرس عام ٢٠٠ م ٠٠٠ ومن ناحية أخرى كان الدين الجديد يستهوي الفقراء والمستغلين والمقهورين في مختلف أنحاء الإمبراطورية، فأصحاب المسيح قوم بسطاء بينهم النجار والصياد. ودعوة المسيحية دعوة محبة فى عالم يسوده العنف الروماني ٠٠٠ واكتسب نضال المصريين من أجل عقيدتهم الجديدة طابع النضال ضد السيطرة الرومانية، وأعمل المحتل الروماني القتل والإرهاب والتخريب ضد المقاومة المصرية كأبشع ما يصنع غاصب مع مقاومة. وضرب المصريون أروع الأمثلة فى التمسك بالعقيدة والاستشهاد من أجلها، وبلغت حمامات الدم أفظع مدى على يدي دقلديانوس في ٢٨٤ م، عام الشهداء الذي يبدأ منه التقويم القبطي " ٠

وبعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة الرومانية أو البيزنطية ماذا حدث !! الدكتور وليم سليمان كتب " إن الكنيسة المصرية لم تنس قط الحقبة الأولى

من تاريخهـا عندما لقي الأقبـاط كل عنت و اضطهـاد على أيدي المسيحـيين الملكانين الذين سامـوهم باسم المسيحـية أشد أنواع العـذاب، وإنه حتى الآن لا يكاد يمضي شهر إلا وفيه ذكرى لأحد شهداء هذه الفتـــرة"٠

ذلك الصراع الـذي كان نتيـجتـه انقسام الكنيـسة عـام ٤٥١م بعد مـجمع خلقدونية. كان صراعـاً وطنياً ضد سيطرة بيزنطة وحكامها على مصـر وشعبها فنشأت الكنيسة القبطيـة أي الكنيسة المصرية تحريفاً للكلمة اليونانيـة إيجيبتوس المشتـقة بدورها من كلمة هايجـبتاح أحـد أسماء مـدينة منف العاصمـة القديمة الذي استعمله الإغريق للدلالة على مصر كلها ٠

ويقتـرح الدكتور إسـماعيل صبري أن نستبدل اسـتخدام تعـبير " العـصر اليوناني الروماني " ليحل محلها " العصر القبطي " ٠ لأنه الأصدق تاريخياً ٠

أهم نتائج هذا الانقسام الكنسي تمثل " في استخدام الأبجدية اليونانية مضافاً لها سبعة رمـوز - حروف- ديموطيقية في كتابه اللغة المصرية كـما كان يتكلمها المصـريون آنذاك. وكان الدافع إلى ذلك هو الرغـبة فى تيـسيـر الكتب المقـدسة ورسائل البطاركـة والقديسين من حيث الـنسخ والقراءة وهكذا ظهر مـا يُسمَّى باللغة القبطية التي لم تحظى منا بالقدر الكافي من الدراسة حتى الآن "٠

على الجـانب الآخر يقـدم ول ديورانت في المجلد السادس الفـصل الرابع " حماة الدين " عرضاً آخر:" أما مصـر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه في قرطاجنة وقد اختـفت مراحله الأولى من التاريخ فأصبـحنا لا نعرف عنها شيئـاً، غير أننا نـسمع فـجأة فى أواخر القـرن الثاني عن مدرسـة لتعليم أصـول الدين بالسؤال والجـواب قائمـة في مدينة الإسكـندرية، قرنت المسـيحـية بالـفلسفـة اليونانيـة

وأخـرجت للعالـم أبوين من أعظم آباء الكنيسة همـا كلمنت و أرجن، وكـان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية محبـاً لها على طريقته الخاصة ، ولو أن الروح التي كانت تعـمرهما سادت في ذلك الوقت لما كـان لانفصال الثـقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر متلف شديد " ٠

" ومن أقـوال أرجن: إن من وراء المعنى الحـرفي لعـبارات الكتـاب المقدس طبقتين من المعاني أكثـر منه عمقاً - هما المعنى الخلقي والمعنى الروحي - لا تصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة. وكان يرتاب في صحـة ما ورد في سفـر التكوين إذا فهم بمعناه الحـرفي ويفسـر قصص التوراة بأن هذه الـقصص قد اخـترعت في بعض الأحيـان لكي توضح بعض الحـقائق الروحـية ويقـول متسـائلاً " أي رجل عاقل يصـدق أن اليـوم الأول واليوم الثـاني واليوم الثـالث وأن المساء والصـباح كـانت كلها من غـير شمس أو قـمر أو نجوم، وأي انسـان تصل به البلاهة إلى حـد الاعـتقـاد أن الله قـد زرع جنة عـدن كـمـا يزرع الفـلاح الأرض وغرس فيها شجرة الحياة ٠٠٠ حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة الأبدية ! " ٠أرجن هذا عـانى في حـيـاته و اضطهـد وسـجن من قـبل باباوات روما وأباطرتها " ولكننـا لا نكاد نجد عالماً مسيحـياً ممن جاءوا بعده بقرون لم يغترف من سحر علمه الفـياض ولم يعتمد على كتبه - التي تعـد بالآلاف - و أثر دفـاعـه عن المسـيحـيـة في عـقـول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها دفاع آخر قبله، وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفـوس فحسب بل أصبـحت فوق ذلك فلسفة نـاضجة

كاملة النماء دعامتها الكتاب المقدس ولكنها تعتز باعتمادها على العقل" ·

" لقد نالت المسيحية بعد ذلك نصراً في بلاد الشرق يكاد أن يكون تاماً، ففي مصر أصبح المسيحيون أو القبط هم أغلبية السكان وكانوا يمدون بالمال مئات من الكنائس والأديرة، واعترفوا بسلطة تسعين أُسقفاً مصرياً عن طريق الإسكندرية وهي سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين من طراز غير محبوب أمثال - توفليس - الذي حرق هيكل سرابيس الإله الوثني ومكتبته وكان البعض الآخر محبب إلى النفوس مثل الأب - سينسيوس - أسقف بطوليمايس المتواضع وقد درس علوم الرياضة والفلسفة في الإسكندرية أيام وثنيته وقبل أن يتزوج بامرأة مسيحية عام ٤٠٣، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحي ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد والفكر والنفس إلى الأب والروح والابن " ·

وهكذا مع رحلتنا عبر الزمن وما حدث لمصر والمصريين نستطيع أن نقول إن حكم البطالسة ومن بعدهم الرومان أبعد المصريين عن لغتهم، وأن القبطية جاءت لتبعدهم عن أديانهم، فتحولت منشآت الفراعنة حولهم إلى إنشاءات غريبة عليهم وهانت قيمتها فقاموا بتدمير أغلبها وهم لا يدرون أنهم يزيدون من هجر تاريخهم وأصولهم ويسلمون أنفسهم بعد ذلك لدعاوى الجهالة والتخلف ·

وبدأت رحلة الغيبوبة الكاملة وفقد الهوية.

ج -العرب والأتراك والألف الثالثة (٦٠٠- ١٨٠٠)

١-إمبراطورية ابن الخطاب حتى خلفاء الفاطميين (٦٠٠-٩٠٠م)

يُحكى عن خالد بن يزيد أنه بلغه أن عمرا قدم إلى بيت المقدس للتجارة في نفر من قريش وكانت الجماعة ترعى إبلها خارج المدينة في نوبات بينهم ٠٠٠ في يوم شديد الحرارة كانت نوبة الرعي على عمرو عندما " مر عليه شماس من شمامسة الروم من الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس " فخرج يسيح بين شعابها فضل الطريق وأصابه العطش " فسقاه عمرو من قربة له حتى روى ونام " من حفرة بجوار مرقد الشيخ خرجت حية ضخمة فيضربها عمرو " بسهم قتلها " عندما استيقظ الشماس ورأى الحية أقبل على عمرو فقبل رأسه وقال " قد أحياني الله بك مرتين " وأراد الشماس أن يكافئ عمرو فسأله " أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي !! " عندما عرف أنها مائة من الإبل أي ما يوازي ألف دينار وعده إن هو تبعه إلى الإسكندرية أن يمنحه ديتين أي ألفي دينار ٠

في ذلك الوقت كان أقصى ما يصبو إليه عمرو من رحلته إلى بيت المقدس وتجارته أن يربح ما يكفي لشراء بعير جديد يضيفه إلى بعيريه فجاء عرض الشماس شديد الإغراء بحيث تبعه مع آخر " إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية فرأى عمارتها وكثرة أهلها وما بها من أموال " ثم أن الشماس أوفى بوعده بعد أن جمع من أهل الإسكندرية قيمة الديتين وأكرم عمرو ومن معه ثم صحبهما إلى الحدود بحيث " عرف مدخلها ومخارجها " وعاد إلى بيت المقدس يحمل بين كفيه ثروة قال عنها " وكان هذا أول مال اعتقدته وتأثلته "٠٠ فلازال حلاوة طعمه في فمه حتى قاد جيوش العرب بعد ذلك متخطياً حدود

العريش ومعه أربعة آلاف مقاتل وقيل بل كانوا " ثلاثة آلاف وخمسمائة " لا يواجهه إلا مقاومة يسيرة حتى وصل إلى بلبيس " فقاتلوه بها نحو شهر حتى فتح الله عليه ...." ثم مضى في طريقه " لا يدفع إلا بالأمر الهين " أي لا يعطل زحف جنوده أي عقبة حتى أتى أم دنين - قرب ميدان رمسيس حالياً - فقاتلوه بها قتالاً شديداً و أبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف ثم ثمانية آلاف .. " فسار عمرو بمن معه حتى نزل عن حصن فحاصرهم.. ".

" .. إن عمرو بن العاص حاصرهم بالقصر الذي يقال له بابليون حيناً وقاتلهم قتالاً شديداً يصبحهم ويمسيهم، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقام الألف ؛ الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعباده بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقال عمر اعلم أن معك اثنى عشر ألف و لا يغلب اثنا عشر ألف من قلة" .

" فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً" .

" فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه " .

عمرو بن العاص بعد اقتحامه حصن بابليون وهروب المقوقس إلى جزيرة

الروضة دعاه إلى ثلاثة خصال " ليس بيني وبينك إلا ثلاثة خصال إما تدخل الإسلام إما تعطي الجزية وتكون آمن على نفسك من القتل و إما تقاتلنا ونقاتلك" قال المقوقس لمن حوله " أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الخصال إما دخولكم في دينهم فلا أمركم به ٠٠و إما قتالهم فأنا أعلم بأنكم لن تقووا عليهم ولا تصبروا صبرهم ولكن افعلوا الثالثة " قالوا : أفنكون لهم عبيداً ٠٠ قال : نعم تكونوا عبيداً أنتم و أولادكم إلى أن تموتوا عن أخركم " ٠أي تطور هذا الذي حدث لكبير مصر !! ولكنه حصاد ما زرعوه لألفي عام مضت.

وهكذا : فرضت الجزية الفردية والجماعية على " ثمانية آلاف ألف إنسان غير الروم " أي ثمانية ملايين مصري استبد بهم اثنى عشر ألف عربي.

وكانت دينارين على كل رأس من القبط ثم ثلاثة دنانير في عهد عثمان ثم أربعة دنانير في عهد معاوية وهي كل ما كان يمكن للفقير أن يدخره في عام ٠

ثم جاءت الأخبار بأن ملك الروم أرسل عسكراً عظيماً في البر والبحر فلما سمع ذلك عمرو خرج إليهم بمن معه من العربان فتلاقوا في الكريون فلم تكن إلا ساعة وقد فتح الله تعالى على المسلمين بالنصر على عساكر الروم ٠بعد ذلك بتسعة أشهر فتحت الإسكندرية. قال ابن عبد الحكم " وكان فتح الإسكندرية عنوة بغير عهود ولا صلح "٠ذكر ابن عبد الحكم " لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال " اقسمها يا عمرو " فقال عمرو " والله لا أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين ". أمير المؤمنين لم يوافق و " حبس درها وصرها أن يخرج منه شيئاً نظراً للإسلام وعهوده "وهكذا انتقلت ملكية مصر

من الإمبراطور الروماني شخصياً إلى الخليفة عمر شخصياً و أصبحت كالوقف الذي ينفق من ريعه على الإسلام وعهوده أو بكلمات أخرى الممول الرئيسي لبيت المال بخراجها ودرها وصرها للإتفاق على إمبراطورية عمر بن الخطاب.

عمرو بن العاص أول ولاة عمر أمن البطريرك بنيامين على حياته فعاد من الصحراء إلى الإسكندرية ٠٠٠ ولم يخلف عهده مع المقوقس ولكنه تأخر فى تعمير بيت المال فأرسل له الخليفة المنتصر " أما بعد فإنكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام وأكلكم الحرام وأورثتم الحرام وقد بعثت إليكم محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك فأحضر مالك " ٠ثم كتب " فإنى فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وإنه قد عالجها الفراعنة وعملوا بها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك و أعجب ما عجبت إنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من خراج ٠٠ وقد أكثرت مكاتبتك في الذي على أرضك من خراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر ٠٠٠٠ ". ولكن النهر لم يؤدي إلى نتيجة فأرسل له "ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمه ولا لقومك ولكنني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابي هذا فأحمل الخراج فإنما هو فئ المسلمين وعندي من تعلم قوم محصورون ٠٠٠ "وهكذا حدد عمر بن الخطاب الهدف من احتلال جيوشه لمصر، فهي فئ لقوم محصورون.. ولتسقط كل الدعاوى الدينية السامية ؛

فالتغيير سيأتي على مهله، وليدفع كل المصريين ـ من أسلم ومن لم يسلم ـ الجزية لتمويل خزينة الإمبراطورية ·

التاريخ الطويل لحكم العرب ليس موضوعنا الآن ولا خلافاتهم وحروبهم ولكن ما يعنينا هو تأثير ذلك الحكم وتلك الحروب وما أحدثته من تغييرات جذرية على مصر والمصريين بحيث وصفهم المسعودي في كتبه " نساؤها شر نساء الأرض وعندهم خبث ودهاء ومكر ورياء وهي بلد مكسب لا مسكن ·· أهلها شر، فكن منهم على حذر ". أما أبو الصلت فكتب " أهل مصر الغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك في اللذات والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وعندهم مكر وخداع ولهم كيد وحيل..." والسؤال الآن من هم أهل مصر الذين يتكلم عنهم المسعودي و أبو الصلت وغيرهم من حكماء العرب !المصريون- أو فلنقل أهل مصر- في ذلك الزمن كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام رئيسية ·· أوضحها وهم في الأغلب من قصدهم العرب بحكمهم السابق، كانوا جالية من اليونان الرومان المتمصرين وهم منتشرون أساساً في الدلتا وعلى شواطئ البحر الأبيض يديرون إقطاعات واسعة لزراعة الحبوب والعنب و إنتاج النبيذ ويعملون فى التجارة تحميهم حامية رومانية أعدت للقهر الداخلي لا لحروب خارجية كما هي العادة التي استمرت لزمن قريب ويرأسهم المقوقس وهم مسيحيون غربيون أو يهود يضطهدون المسيحيين الشرقيين ويجعلون رؤساءهم الدينيين يهربون إلى أديرة الصحراء ·

هؤلاء بالطبع كان لابد و أن ينهمكوا في اللذات يعيشون حياة ترف سبق أن أذهلت عمرو بن العاص كما أوردنا سابقاً · واستمرت في التأثير على

جنوده وقواده ومؤرخيه ولكن لقصر نظرهم دمغوا بذلك أهل مصر دون تفرقة.

القسم الثاني وهم العاملون في الأرض(أقنانها) من مصريين يلتفون حول كنيسة قبطية بالغة الثراء بما يتبرعون لها به طواعية حتى أن البعض كان يعتبر آباء الكنيسة في ثراء كهنة آمون. هذه الثروات كانت مخفية بعيداً عن أيدي الرومان في أماكن سرية - تحت البلاطة - كعادة المصريين دائماً وكان على عمرو بن العاص أن يزاول جميع أنواع الإرهاب والرعب لهم كي يستخرجها. يحدثنا المؤرخون العرب " أن عمرو عندما استقر في مدينة الفسطاط جمع القبط وقال لهم من كان عنده كنز وكتمه عني ضربت عنقه " ٠٠٠ " فوجد مخبأه أسفل الفسقية فيها ذهب دنانير مسبوكة كالعرمة القمح فنقله بالقفاف إلى داره ثم إنه اكتال الربع فإذا هو اثنان وخمسون أردباً ٠٠٠ ثم أن عمرا أحضر بطرسا بين يديه وضرب عنقه بحضرة جماعة من القبط فلما رأوا ذلك صار كل من كان عنده كنز أحضره بين يدى عمرو وإلا صار مثل بطرس " ٠

القسم الثالث وكان منتشراً في الصعيد من أهالي النوبة أو من بقي من أزمنة ملوك الحبشة وكانوا على درجة عالية من الصرامة والقوة وقد توحي لنا القصة التالية بما كان عليه حالهم ٠٠٠ فعبد الله السفاح أول خلفاء بني عباس بعد أن طارد عبيد الله بن مروان الحمار هرب إلى مصر ولكن الآخر لاحقه فهرب منه إلى النوبة، بعد حوالي مائة سنة من انضمام مصر كولاية من ولايات إمبراطورية عمر بن الخطاب - طالباً حماية ملكها الأسود الذي رفض إغاثته ثم لقنه درساً في أصول الحكم من خلال مترجم قائلاً " قل له فكيف تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من خمر ٠٠ وتلبسون الديباج وهو

محـرم عليكم وتركبـون في السروج الذهـب والفضـة وهي محرمـة عليكم ولم يفعل نبيكم شـيئاً من هذا ؟ وبلغنا منكم لما وليت مصر كنت تخـرج إلى الصيد وتكلف أهل القرى ما لا يطيقـون وتفسدون الزروع على الناس وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى وكل هذا لأجل كركي تصيده قيمته سبعة أنصاف وهذه بدع اخترعتـموها " " .. ولما استحللتم ما حرم الـله عليكم سلبتم ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقـمة لم تبلغ غـايتهـا و أنا أخاف على نفـسي إن أنزلتك عندي فـتحل بي تلك النقـمة التي حلت بكم ٠٠ ولكن ارحل عن أرضـي بعد ثلاثة أيام وإلا أخذت ما معك من أموال وقتلتك " ٠

وهكذا كان على أرض مـصر خليط من الأجناس والثـقافات والحـضارات متجاورة، احتار فيه القادمون الجدد من ولاة يعينهم الخلفاء المتعاقبون ٠

قـال بعض المؤرخين " تولى مـصر اثنان وسـبـعون أمـيـراً أولهم عمـرو بن العاص وآخرهم أبو الفوارس أحـمد الإخشيدي ولم ينفرد بخراجـها إلا الأمير أحمد بن طولون " ٠

الفتـرة التي تغطيهـا العبارة السـابقة حوالي ٣٤٠ سنة أي تـصل بنا إلى عام ٩٠٠ م عندما استوطن الفاطميون مصر ٠

وهي فتـرة شهـدت صعـود إمبـراطورية عمـر بن الخطاب ثم تفككها بـعد صراع القبائل العربية المكونة للتحالف وقتالها بعضها البعض لتنتقل الخلافة من المدينة إلى دمـشق فـبـغداد وتبـقى مـصـر الممول الأسـاسي للجـيـوش والملوك والأمراء ٠٠٠ بعض الولاة كـان شديد القسوة والبـعض الآخر كان أكثـر ليونة ٠٠ البعض أرسل لمقر الخلافـة معظم الحصيلة وآخرون احتفظوا بهـا مثل أحمد

بن طولون الذي جاء إلى مصر " وهو ضيق الحال يحتقره من يراه وعندما مات خلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار (عشرة مليارات دينار) ومن المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ومن العبيد الزنج أربعة وعشرين ألف عبد ومن الخيول سبعة آلاف فرس ومن البغال ستة آلاف بغل ومن الجمال عشرة آلاف جمل ومن الفصوص والجواهر مائة صندوق ومن المراكب الحربية ألف مركب هذا خارج عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك " ٠

كان الخليفة - أياً كان - يولي مصر لمن يلتزم بتوريد قدر معين من الأموال للخزانة فيقسم الوالي مصر إلى مناطق يقطع كل منها ملتزم وكان " الملتزمون يجتمعون في جامع عمرو فينادي عليهم منادي صفقات في صورة مزادات مدتها أربع سنوات ومن يرسو عليه مزاد التزم بتحصيل الخراج من المزارعين " على أقساط تغطي نفقاته وأرباحه ونفقات الوالي وجنوده وعماله وأرباحه وتسدد ما التزم به للخليفة بحيث تجمع لأغلبهم أموال طائلة ٠٠ المصري - القبط أو اليونان - كان عليه أن يدفع في السراء والضراء سواء طاله قحط أو طاعون أو نهب فلا عجب أن يكتب عنهم بن اياس في باب- طبائع أهل مصر- " أن أمزجتهم وأخلاقهم بعضها شبهاً لبعض فإن أبدانهم سريعة التغيير قليلة الصبر والجلد كذلك أخلاقهم تغلب عليها الاستمالة والانتقال من شئ إلى شئ وعندهم الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر على الشدائد وسرعة الخوف من السلطان وعندهم قلة الغيرة على عيالهم وعندهم التحاسد في بعضهم وكثرة الكذب وذم الناس حتى قيل إن كلابهم أقل جراءة من كلاب البلدان

الآخرى وأن الأسد إذا دخلت مصر ذلت • ٠

في ذلك الزمن أي حـول ٩٠٠ م كـانت الخـريطة السكانيـة قـد حـدث عليهـا تعديل طفـيف، ففي قمـة الهرم زاح العـرب من سبقـهم من الحكام الرومان اليونان واحتلوه مكونين أرستقراطية حـاكمة جديدة تدعمها قبائل عربية مهاجرة تعيـش على الأطراف وحول المدن والقرى في قبائل منفصلة تكونت عبر هجـرتين متتاليـتين إلى مصر وشمال أفـريقيا . القبـائل العربية كانت تعـمل في الرعي، بداية كانت ترعى الأغنام والجمـال ثم انتقلت إلى المواشي والجـامـوس والبـقر ٠٠ وعلـى الغارات التـي تشنهـا على المناطق الزراعـية بعـد حـصد المحـصـول أو على القـبائل المعـادية أو المشـاحنة أو القوافل والمسافرين في زمن ضعف السلطة المركزية ٠

الحكام كـانوا يستـعـينون بعدد مـن اليهـود والقبـط في وظائف الجبـاية خصوصاً تلك المتصلة بالأعمال الفنية للري وتحديد المحصول وضبط النيل ٠٠ أما مـن أسلم من المصريين فلقـد عمل في التـجارة واتجـه بعضـهم إلى الدراسات الدينية والفقهية فأصبح منهم القضاة والأئمة ٠

الشعب بقي في مكانه استبدل حاكم بحاكم وظل يعمل ويورد نتاج عمله أما الدين الإسلامي فلم ينتشر بسرعة انتشار المسيحية كذلك اللغة العربية لم تنتشـر، بحيث أنه وحتى زمن المأمـون عندما أعاد غـزو مصر كانت تتـحرك جـيوشـه ومعـها التـراجمـة لأكثـر من لغة حـتى يسـتطيع أن يتفـاهم مع من صادفهم خلال غزوته ٠٠ بكلمات أخرى استمر الشعب على حاله. كما كان في زمن اليونان والرومان، كان أيضاً خلال الفترة الأولى من حكم العرب.

٢- الفاطميون ودولة المماليك (٩٠٠م-١٥٠٠م)

المعز لدين الله الفاطمي أرسل قائده جوهر وكان خصياً صقلي الجنسية على رأس مائة ألف فارس فملك مصر من غير قتال ولا مانع يوم الجمعة ١٩ شعبان ٣٥٨ هجرية ليصبح ثاني خصي يحكم مصر بعد كافور الإخشيدي لحين حضور سيده بعد أربع سنين ٠

جوهر الصقلي بعد استقراره في مصر أمر المؤذنين أن يجهروا في الآذان " حي على خير العمل " والدعاء لعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلى آل المعز لدين الله قائد الإيمان إعلاناً على تحول مصر من المذهب السني إلى المذهب الشيعي والذي دام لقرنين من الزمان ٠

المعز عندما دخل مصر حمل معه رفات أجداده في صناديق من خشب ودفنها في مدفن أسفل خان الخليلي حتى تم نهبها مع الشدة المستنصرية ٠٠ وعندما سأله ابن طباطبا عن نسبه جذب نصف سيفه من غمده وقال هذا نسبي ثم أحضر أكياساً فيها ذهب وفرقه على الجند وقال وهذا " حسبي " ومنذ ذلك صارت مثلاً " سيف المعز وذهبه " عنواناً على مرحلة جديدة من مراحل حكم مصر. وكما سبق أن عرضت فإن تاريخ مصر ليس موضوعنا وإنما تأثير هذه الأحداث على تكوين أسباب الانهيار ودروسه ٠

فالفاطميون رغم ما يبدو للبعض عكسه كان لهم تأثيرات لازلنا نلمسها حتى يومنا هذا ٠٠ فالأزهر والقاهرة أول إنشاءاتهم في مصر ومن بعدهم أصبحت العاصمة بدلاً من الإسكندرية. وعمل الأضرحة وزيارتها كانت

فرصة للمصريين في إحياء تقاليدهم القديمة الخاصة ببناء مزارات الآلهة الصغرى مع استبدال الاسم ٠

ففي زمن سابق كان لكل قرية إله ولكل مدينة آخر أكبر ومسيطر ولكل " نوم " إله ومجمع آلهة (تاسوع) ولكل قطر آخر، أما العاصمة فقد كان بها الإله الأكبر المنتصر على كل الآلهة ٠٠ هذا التراث فجره الفاطميون فأصبحنا نجد لكل قرية شيخ أو ولي ثم أولياء للمدن وآخرين للمحافظات سيدي إبراهيم الدسوقي والسيد البدوي وإبراهيم القناوي والمرسي أبو العباس ٠٠ وفي العاصمة السيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الحسين ٠

احتفالات المصريين القدماء أيضاً أحياها الفاطميون، موالد الأولياء وخاصة المولد النبوي الشريف وعاشوراء ووفاء النيل والأعياد الدينية الإسلامية والمسيحية وكان يتداول فيها نفس الأطعمة (حلاوة المولد - العاشوراء - الفسيخ والبصل - الكعك ٠٠٠) الزار والذكر واستخدام الموسيقى في الأغاني الدينية الاحتفالية. وكانت الكنيسة القبطية قد احتفظت بالعديد من الأنغام والنوت الموسيقية الحية يتداولها جيل بعد جيل ٠٠ أيضاً الطرق الصوفية ٠٠ جو البهجة هذا الذي سمح الفاطميون بتفجيره أظهر وأكد حجم التواصل والاتصال بين حلقات تطور المصري عبر التاريخ ٠

ولكن ٠٠٠ كان للفاطميين أيضاً جموحهم وشططهم ولنقل في بعض الأحيان جنونهم، فالحاكم بأمر الله نموذج الخليفة المخبول " صار يفعل أشياء لا تقع إلا من المجانين الذين في عقلهم خلل ؛ فمن ذلك منع النساء من الخروج إلى الطرقات ومن التطلع من الطاقات والطلوع على الأسطح ومنع الخفافين

من عمل أخفاف لهـن ومنع سائر النساء من الدخول إلى الحمامـات، فمر يوماً بحمّام الذهب فـسمع ضجيج النساء فـأمر بأن يسد عليهن باب الحمـام فسدوه عليهن في الوقت والساعـة وهو واقف عليه فأقمن داخل الحمام حـتى متن فيه، ومنع بيع الزبيب وأمـر بحرق الـكروم وبيع العسل الأسـود، كذلك منع زراعـة الملوخية لأن عائشة كانت تميل إليـها والقرع لأن أبو بكر كان يميل إليه ٠٠٠٠٠ ثم أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها ليـلاً ٠٠٠٠

هذا الحاكم مر علـى مصر من أمثاله العـديد ٠٠ كما مر عليـها أيضاً الحكام الأطفال والحكـام الشرهين ٠٠٠ كمـا سنعرض بعـد ذلك ٠ أهم ما تركـه مثل هؤلاء الحكام هو اضطهاد القبط فهو قد " أمـر النصارى بأن يضعوا في أعناقهم صلبـاناً من الحـديد قدر كل صـليب ذراع " مما أثر على عظام الرقـبة وجـعلهـا باللون الأزرق ومن هنا جاء تسمـية القبط بالعظمة الزرقاء ٠٠٠ وتسلط العـبيد فلقد بالغوا في شراء العـبيد لحمايتهم حتى أنه ومع نهـاية حكم الدولة الفاطمية حكم مصر بشكل متواصل عبيد تم شراؤهم بواسطة النخاسين ٠

دولة العبيد بدأت عندما كثف الأوروبيون من غـزواتهم فاحتلوا رشيد أكثر من مرة و " استـولى الفـرنج على ثغر دمـياط ونهبـوا أسواقـها وقتلوا أهـلها ثم زحـفوا على الضـياع وأكـثروا القتل والسـبي ثم وصلوا إلى بلبيس وكسـروا عساكر الفسطاط ودخلوا القاهرة من خـلف السور ثم توجهوا إلى بركة الحبش وصاروا يقتلون من وجدوه من المسلمين وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالاً جزيلـة وأخذوا في أسبـاب جبـايتهـا. الوزير شاور أشـار على العاضـد بحرق الفسطاط خـوفاً من الفرنج أن يملكوها فـأذن له في حرقهـا فأقامت النار عـمالة

فيها نحو شهرين وكان يرى دخانهـا من مسيرة ثلاثة أيام . العاضد استجار بنور الدين صاحب دمـشق فأرسل له أسـد الدين شيركـوه وابن أخيـه صلاح الدين ومعهما العسكر فخاف الفرنج ورحلوا إلى بلادهم" ٠

القوات القادمة للنجدة شنقت الوزير شاور وحجرت على السلطان العاضد حتى انتـحر وأعـادت السنية " أقـام مجد الشـافعـية دون غيـرهم من المذاهب " واستـولى صـلاح الدين على الحكم " أزال ما كـان بمصر من العـساكـر الملفـقة وكانوا ما بين صقالبة ومصـامدة وأرمن وشناترة العرب وطائفة من العبيد الزنج فمحا هذه الطوائف كلها واستجد بمصر عساكر من الأكراد خاصة فكان عدتهم اثنى عشر ألفاً " ٠

لتـبدأ دولـة المماليك الأكـراد والتي اسـتـمرت حـتى الملكة شـجـرة الدر أم خليل٠

صلاح الدين لم يمضي بمصر الوقت الكثير، فلـقد كان دائم الحروب خاصة مع الفرنج، ولكنه ترك وزيره قراقوش ليبني القلعة وسور القاهرة الثاني ويزاول تسلطه على المصريين حتى أصبح مضرباً للمثل في التعنت المصاحب للقوة .

المماليك حكمـوا مصر بعد ذلك ثلاثة قرون تغـيَّرت فيها الخـريطة السكانية لتصـبح حكام مماليك يكونون طبقـة أرستقـراطية عسكرية دائـمي الصراع على المناصب وكراسي الحـكم ونهب ومراكمـة الأموال، وكلهم جلبـهم نخاس من بلاد الشرق حـول أفغانستـان وتركيا وتسـموا بأسماء نـخاسيهم ومـعظمهم لا يتكلم العربية وبعضهم ظل حتى الموت لا يتقنها مثل السلطان برقوق ٠ وهؤلاء كان لديهم أطماع متفاوتة ما بين السـيطرة على مصر وحزام الأمن الإستراتيجي

في فلسطين والشـام والجـزيرة العـربية، ومـحـاربة الغزاة القـادمين من الشـرق كالمغول والتتار. ولقد نجحوا فعلاً فى صد تلك الغارات وتحويلها في اتجاه الهند وفي صد أولاد حسن الطويل القادمين من العراق و أولاد عثمان الأتراك .

حروب المماليك الداخلية والخارجيـة وتلهفهم على الرفاهيـة والسلطة كان يمولهـا الشـعب المصـري في الحـقـول والمدن. العـامل في الزراعـة والصناعـة والتجارة وأعمال القضاء وتعليم الدين وأداء طقوسه حسب نظم الأئمة الأربعة وفي صناعة الإنشـاء. حيث بنى المدارس والوكـالات والأربع والقلاع والمدافن والمساجـد وشق الترع ومـهد الطرق وبنى المدن ٠٠٠ الشـعب المصري المقـهور المضطهد هذا لم يعد قـبطياً مصرياً قح، بل زاد عليه من بقي من أحـفاد الرومان واليونان والـيهود الذين اسـتوطنوا البـلاد كسـادة فأصبح أبناءهـم من " الرعاع والسوقة" كما كان يحلو لكتاب اليوميات العرب ذكره ٠

يبـقى أبناء القبـائل العربيـة التي أزاحـها الممـاليك من السلطة ٠٠ فقـد زاد تحوصلهم وبعدهم في نطاقات أمنية خارج المدن وبجوار الصحراء، وكان بينهم وبين الممـاليك حروب حـتى يندر أن نجد حـاكماً مملـوكياً لـم يخرج التـجاريد لتأديبهـم سواء فى البحيرة أو وجـه قبلي أو الجيزة أو الفـيوم والدهاشنة. ورغم القسوة التي عاملهم بها بـعض الحكام، إلا أنهم لم يلينوا ولم يستسلموا وظلوا محـافظين على عـلاقاتهم القـبلية. يرأسـهم مشـايخ العربان، ويدينون لـهؤلاء المشايخ بالطاعـة، ويزاولون الأعمال التـقليدية من رعي وحـراسة وسطو ونهب وقطع طرق خـاصة على قـوافل الحـجاج ٠ فـأصبـحوا كـالأشواك في جـانب الفلاحين حتى أن الفلاح المصري تعلم ألا يتـرك بهائمه خارج الأسوار المحصنة

أبداً، وكان يبني منزله كما لو كان حصناً يحمي فيه محصوله ودواجنه وأفراد أسرته من السبي والبيع في الأسواق. فى نهاية حكم المماليك بدأ بعضهم يمتهن الزراعة ويختلط بالمزارعين ويمتلك الأرض ويزرع مثل المصريين .

وهكذا زاد تفكك النسيج البشري المصري بما اشتراه الحكام من مماليك وازداد تباعد وتنافر الفئات المختلفة وخوف كل فئة من الأخرى والحذر منها فعمت شريعة الغاب، وكان من يستطيع أن يحصل على شئ أخذه حتى على جثة صاحبه فازداد تدهور البلاد وأصبحت فريسة سهلة للسلطان سليم الأول التركي ليغزوها بمعاونة الخائن خاير بك الذي ولاه بعد ذلك مصر قائلاً " أعطيتك هذه المملكة إقطاعاً لك إلى أن تموت " ٠٠ وبعض العربان الذين كانوا العامل الحاسم في هزيمة قايتباي وأسره وإعدامه، ولهذا فإن سليم الأول بعد أن تم له النصر " خلع على شيخ العرب حماد بن خبير شيخ عرب غزالة وعلى بن عمر شيخ هواره وعلم الدين شيخ بني عدي " لما بذلوه من مساعدة في نصره ثم نهب الثروات المتوفرة وفرغها من ثروتها البشرية من صناع وحرفيين مهرة ثم سلمها بعد ذلك لوالي خرب الذمة تبعه ولاة لا عدد لهم بعضهم كانت مدة حكمه شهور كانت كافية لأن يُكَوِّن منها ثروة يعود بها إلى الأستانة ٠

وكأن التاريخ يُعيد نفسه فلقد حكم مصر نيابة عن العثمانيين مجانين ومعاتيه وأطفال قصر وزادت مؤامرات الجواري ودسائس المغامرين، وانعكس هذا على الشعب، ولنرى كيف وصفت كتب الحملة الفرنسية الذين عاشوا على أرض مصر في مدخل القرن التاسع عشر ٠

د - الحملة الفرنسية وافتتاح قرنين (١٧٩٨-٢٠٠٠)

١- بونابرته فى مصر

في مقدمة كتابه عن الجبرتي كتب د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى "ثم طرأت عدة عوامل كان لها أثرها في اضمحلال الحضارة العربية ليس فقط في مصر بل في قواعدها الأخرى في المشرق والمغرب، فقد استهلكت الحضارة العربية حيويتها ثم تأثرت تأثراً بالغاً بتحول طرق التجارة عن مصر والمشرق العربي إلى رأس الرجاء الصالح. وفي النهاية وقعت الكتلة العربية من العالم الإسلامي في أيدي الأتراك العثمانيين الذين آثروا لأسباب عسكرية ودينية أن يعزلوا ملكهم من العالم الخارجي. وحدث كل ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا النهضة والإصلاح الدينى وظهور الملكيات الحديثة التي خصخصت الإقطاع وتحالفت مع الطبقة الوسطى لتدعيم الدولة الحديثة مصطنعة أساليب جديدة تقوم على وسائل الكشف والإختراع ".

" كانت مصر حتى الحملة لا تزال غارقة في سبات العصور الوسطى إلى أن أذنت الحملة برجوعها إلى المشاركة في الفكر العالمي. والفارق كبير بين العقلية الأوروبية التي مثلتها الحملة وبين العقلية الشرقية التي كانت تتمثل في مصر المملوكية العثمانية بمقدار الفارق الزمني الطويل الذي قطعناه في تأخر وقطعته أوروبا في تقدم ٠٠٠ المصريون ذهلوا لمقارنة تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد ".

الجبرتي في " عجائب الآثار في تراجم الأخبار " يترجم هذا الذهول، فهو في تقدمة إبراهيم بك ومراد بك، يكتب " الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم

مختالـون في ريشهم معتزون بجمـعهم محتقرون شـأن عدوهم مرتبكون في رويتـهم مغـمورون في غـفلتهم وهـذا كله من أسبـاب ما وقع من خـذلانهم وهزيمتهم " ٠

أما عندما يكتب عن الفرنسيين " حتى أسـافلهم من العساكر إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعون الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشيشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم خصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له كل مـودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبـوع بها أنواع التصـاوير وكرات البـلاد والأقاليم والحـيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء "٠

" كانـوا يعطون الرجال زيادة عن أجـرتهم المعتـادة ويعرفـونهم بعد الظـهر ويستعـينون في الأشغال وسرعـة العمل بالآلات القريبة المأخـذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة التـكلفة"٠

وهو مـذهول باستـخدام العـربات ذات العجل لنقل التـراب بدلاً من النقل اليدوي بـالغلقان والقـصاع وبأنهم " قـتلوا ثلاثة أنفار من الفـرنسيس وبنـدقوا عليهم بـالرصاص بالميدان تحت القلعـة قيل إنهم من المتـسلقين على الدور "أي اللصوص ٠

وأن نابليـون أيضاً " اقـتص من عسكره الذين أسـاءوا بمنزل الشـيخ محـمد الجوهري وقتل منهم اثنين بقـراميدان وأنزل طائفة منهم من مقـامهم العالي إلى أدنى مقام "٠

وكـان تأثيـر ذلك على الجـبـرتي أن كـتب " لأن الخـيـانة ليـست من عـادة

الفرنسيس خصوصاً مع النساء والأرامل، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس " ٠

والحق أن هذا بالضبط ما كان يبغيه بونابرت، فلقد كان يحاول أن يترك أثراً لدى المصريين مخالف لما اعتادوا عليه " فلوَّح لهم بالحكم الذاتي واستثار فيهم مصر الفرعونية التي تقطعت بها الأسباب وخاطبهم بلغة الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة "٠

ولقد حدث هذا فعلاً " فقد كانت الحملة الفرنسية بالنسبة للمصريين بمثابة تحد ضخم لهم ولمقوماتهم. حقيقة أنها فشلت في خلق نظام سياسي - اجتماعي على أنقاض فوضى المماليك، كما فشلت في تطوير نوع من الحكم الذاتي ٠٠٠ ولكن الأهم أنها أوجدت أمام المصريين نمطاً حضارياً متفوقاً نظروا إليه بعين الشك لمخالفته لمألوفهم، ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا مدافعة أثره في بعضهم كالشيخ حسن العطار ويعقوب حنا وغيرهم ".

على الطرف الآخر كانت أيضاً صدمة حضارية .

فى كتابه «بونابرت في مصر» كتب ج كريستوفر هيرولد في الفصل الخامس سياسة تعايش سلمي " كتب نابليون إلى حكومة الإدارة يوم وصل مدينة القاهرة الأسطورية : إن القاهرة التي يسكنها أكثر من ٣٠٠٠٠٠ نسمة تضم أقبح ما تضم مدينة من غوغاء " على أنهم لم يكونوا أقبح منهم على الأقل أكثر الناس تعدد ألوان. إنهم يتفاوتون من النوبي الأسود إلى الجركس الناصع البياض وكان المصري العادي - أياً كان لونه - يعلو بمقدار قامة على الفرنسي العادي ويرتدي ثياباً أزهى من ثيابه وله سحنة تنذر بقطع الرقاب سواء عبست

أو ابتسمت مع أنها تخفي نفساً غاية في الرقة واللطف " ٠

" إن المدينة غير جديرة بسمعتها الطيبة فهي قذرة رديئة المباني تملؤها الكلاب البشعة " . "ماذا تجد عند دخولك القاهرة: شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة وبيوتاً مظلمة متداعية وأبنية عامة تبدو كأنها السجون وحوانيت أشبه بمرابط الخيل وجواً عبقاً بالتراب والقمامة وعمياناً وعوراً ورجالاً ملتحين وأشخاص يرتدون أسمالاً محشورين في الشوارع أو قاعدين يدخنون قصباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنة ويبدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة وأطفالاً صفر الوجوه رقاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ومن التراب والهواء ومن قلي الطعام بزيت ردىء في الأسواق عديمة التهوية. فإذا ما فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت إلى منزلك فوجدته خلواً من كل أسباب الراحة ووجدت الذباب والبعوض وضروباً لا تحصى من الحشرات في انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل فتنفق ساعات الراحة وأنت تسبح في عرقك " ٠

لقد استعرت هذا المقطع الطويل للكاتب الفرنسي لما يدل عليه من مدى التدهور الذي وصل إليه الشارع المصري مقارنة بشوارع طيبة فى العصر الإمبراطورى أيام حكم تحتمس الثالث.

متوسط عدد سكان مصر في ذلك الوقت كما جاء في كتاب «وصف مصر» المجلد الأول، كان ٢,٤٤٢,٢٠٠ نفس، ٢,١٠٢,٤٠٠ منهم يعيشون في الريف في ٣٦٠٠ قرية بواقع ٥٣٤ نفس لكل قرية والباقى يعيشون في المدن

وهذا لايشمل العربان * الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن إخضاعهم لتعداد دقيق * * وان كـان مسيو جوبر يقدر عـدد فرسانهم بـ ٢٧,٠٠٠ فارس، فإذا ما أضـفنا إليهم نفس العدد لأشخـاص راجلين وعدد يتناسب مع ذلك من السيـدات والأطفال فـإن مجـموع تعـداد أبناء قبـائل العربان سـوف يرتفع إلى ١٣٠,٠٠٠ نفس ٠

القاهرة في عام ١٧٩٨ كـانت تضم مابين ٢٥٠ - ٢٦٠ ألف شخص بما في ذلك الممـاليك والتـجـار الأجـانب (الممـاليك ١٢٠٠٠ الملاك ٦٠٠٠ التـجـار ٤٠٠٠ حـرفيـون ٢٥٠٠٠ تجار سـريحـة ٥٠٠٠ قهـوجيـة ٢٠٠٠ خدم ذكـور ٣٠٠٠٠ عمال حمـالين) إجمالى الذكور البالغين ٩٩٠٠٠، والنسـاء البالغات ١٢٦٠٠٠، والأطفال ٧٥٠٠٠،

الأديان : إسـلام سني مـذاهب أربعـة ٠٠٠ مـسـيـحـيـة أقـبـاط كـاثوليك وأرثوذكس وأرمن ومارونية ٠٠٠ يهوديـة طائفة القرائين ٠٠ ولا توجد أديان أخرى ٠

(١) الأقباط لهم منشآت دينية بالغة الروعة، كما أنهم أنشأوا في مصر العليا على وجه الخـصوص كنائس رائعة ويبدو الـصعيد بمثـابة مهد لهم. فقـد كانت أعدادهم هناك على الدوام كـثيرة ولهم مائة ديـر من بينها خمسـة أديرة للنساء، ولا يلعب الأقباط في مصـر إلا دوراً ضئيلاً ومهارة شعبهم هي مـصدر حياتهم واستطاعـوا الاحتفـاظ بجزء من العـمل الإداري دائماً خاص بمسك سـجلات الضرائب والدخول والمـلكيات أي أنهم الململمون بمساحة مـصر وهم كتبـة مصر الحقـيقيـون كما أنهم مَـسَّاحوها ٠٠٠ وهكذا أمكـن للأقباط أن يتـماسكوا في

شكل أمة متحدة داخل بلد منهزم ٠٠٠ وهو أمر نادر في البلاد التي نكبت بالطغيان والاستبداد ٠

(٢) العربان : تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصري من عرب استقروا وارتبطوا بشكل أساسي بالأرض ولا تختلف عادتهم في شيء عن عادات من نعنيهم بـاسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل جوابة تنقل خيامها من صحراء لأخرى، ولا يخضع أبناؤها إلا لمشايخهم ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات ويستحق العربان اهتماماً خاصاً " ٠ ثم يورد جدولاً بأسماء القبائل وأماكن إقامتها والعدد - المفترض للفرسان فى كل قبيلة مثل (عرب الهوارة بين أسوان وجرجا وبها ٢٠٠٠ فارس - عرب العبابدة ولاية جرجا كثيرو العدد- عرب زناتي طهطا ٤٠٠ فارس ٠٠٠٠٠٠٠) مع أسماء شيوخهم في ذلك الوقت ٠

(٣) المماليك : رغم أن تعدادهم ثمانية أو تسعة آلاف رجل فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكري إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بالسلاسل من خوف وسحق تحت وطأة اسمهم " المماليك " الذي يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيراً للرعب بسبب كثرة ما أحرز من انتصارات ٠٠٠ هؤلاء الرقيق إما شراكسة وإما قوقازيين وكانوا يحملون أولاً إلى القسطنطينية ثم يرسلون من هناك إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية، أما العبيد السود فكانوا يجلبون من أعماق أفريقيا. ففي كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلىء بهؤلاء التعساء الذين يتجاوز عدد النساء بينهم عدد الرجال ٠٠٠ ويميل المصريون إلى تفضيل النساء الزنجيات، ويشتري الرجل على هواه

وحسب قدرته اثنين أو ثلاثاً وحتى ستة منهم ٠

كتاب ممتع ولكنه ليس موضوعنا، لذلك سأختم تصفحه بالفقرة التالية: «ويقدس المسلمون هناك عديداً من الأولياء الموتى وهم لا يعظمونهم إلا لكي ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات ويرون في أوليائهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذي ٠٠٠ والجدير بالذكر أن اليهود وهم ليسوا أقل تعصباً ولا تطيراً من العرب يقدسون أحبارهم لنفس الغرض ٠٠٠»

لم يبق أمامنا إلا الحديث عن اكتشاف اللغة الهيروغليفية والآثار المصرية. ولقد سبق عرض هذا في الجزء الثاني من هذا الكتاب لنرى كم ظلم الرومان والعرب والأتراك مصر والمصريين فهووا بهم إلى هذا المستوى المحزن من الانهيار ٠

في كتابه عن «عمر مكرم» كتب الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى(يوليو ٦٧) دار الكاتب العربي " لقد تعرض الشعب بعد إجلاء الفرنسيين لفترة من أحلك الفترات التي مر بها في تاريخه الحافل. سادت البلاد فوضى سياسية عنيفة لم ير الشعب لها من قبل مثيلاً ٠ تصارع على الحكم فيها العثمانيون والمماليك وتصارع على النفوذ فيها الإنجليز والفرنسيون. وكان الشعب الكادح هو ضحية هذا التصارع الرهيب. اضطرب الأمن وانقطعت وسائل الإتصال بين أجزاء البلاد وتدهورت الحالة الاقتصادية وعَزَّتْ الأقوات وامتلأت مصر بأخلاط شتى من الجنود لم تربطهم بالشعب آصرة من ود أو تعاطف، كانوا ينهبون المتاجر ويهاجمون المنازل ويعتدون على الأعراض ويخطفون العمائم

من رؤوس المارة. ومضى العسكريون العثمانيين يمعنون في عمليات السلب والنهب والقتل وينشرون الرعب في الريف والحضر. وتدخل السيد عمر مكرم لدى السلطات الحاكمة لوقف هذه الآثام ولكن كان زمام الموقف قد خرج من أيديهم ۰۰۰۰ ولما اشتدت الكروب بالشعب، وجاوز الظالمون المدى، قاد السيد عمر مكرم ثورة شعبية هادرة في وجه والي عثماني هو أحمد خورشيد باشا الذي أسرف إسرافاً بعيداً في ظلم الشعب ونجحت الثورة وتم انقلاب مايو ١٨٠٥ وفيه استطاع الشعب بصدقه الثوري أن يفرض إرادته ويعزل الوالي الظليم، ويولي محمد علي حكم مصر وفق مبادئ معينة وضعها السيد عمر مكرم وارتضاها محمد علي، وكان أهمها إقامة العدل والكف عن المظالم وعدم استغلال الشعب والرجوع إلى الزعماء ورضخ السلطان العثماني في الأستانة لسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوماً أقر فيه بالوضع الجديد متضمناً (حيث رضى بذلك العلماء والرعية)"۰

٢- محمد علي وأسرته (١٨٠٥ -١٩٥٤)

اختلف الباحثون اختلافاً شديداً في محمد علي، فمنهم من رفعه إلى ذروة المجد ووصفه بأنه باني مصر الحديثة ومنهم من اعتبره طاغية مستبد كأي حاكم شرقي ۰

ولا أريد أن أخوض في هذا الجدل فمن المعروف أن السيد عمر مكرم وعبد الرحمن الجبرتي انتقداه بشدة، أحدهما علناً فعزله من نقابة الأشراف وأقصاه عن الحياة العامة ونفاه من القاهرة، والثاني قتل ابن أخيه وكان قد أشرف على السبعين فتوقف عن الكتابة حتى مات ۰

الشيخ محمد عبده كتب " ما الذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت. كان معظم الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب وعلى إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً أعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلية وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه ٠

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه من أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العسكر بأية طريقة فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليعيد البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده " ٠

عذراً للقارئ استطرادي في الاقتباس من الشيخ محمد عبده.. فهذا الذي قال يمكننا تطبيقه بحذافيره عندما نتكلم عن شخص آخر مشابه جاء وحكم مصر بعده بمائة وخمسين عاماً، وكان له نفس التأثير على شعبه ٠

ومع ذلك فإن " محمد علي " كان والياً تركياً مختلفاً عن باقي الولاة. لقد فهم أن العالم قد تغير وأن هناك في أوروبا منطقاً جديداً

عليه احترامه وعليه التعلُّم منه واقتفاء أثره ٠

هدف «محمد علي» كان تكوين جيش عصري قوي قادر على فرض إرادته به على المنطقة، لذلك أنشأ مدرسة للطب وأخرى للحقوق وثالثة للهندسة وحَسَّن وسائل الري والصرف، ولقد بدأ بالأرنؤط والجركس والأرمن ٠٠ ولكنه بعد ذلك أخذ السودانيين ٠٠ وفي النهاية كان جيشه ومدارسه كلها من المصريين وبعثاته للخارج أيضاً من المصريين. ورفاعة الطهطاوي الذي صاحب هذه البعثة كان بداية اتجاه لنقل الثقافة الأوروبية إلى مصر، وترجمة العديد من الكتب المهمة للعربية. محمد على فى سبيل ذلك بدأ بداية مملوكية ديكتاتورية وانتهى إلى مجلس شورى القوانين ١٨٢٩ الاستشارى وجيش مصري أخرج أحمد عرابي وسامي البارودي و أمثالهم بعد ذلك. والحق أنني أميل لأخذ النتائج التي حدثت وتسببت في تطور حقيقى نتج عنه الخروج من العصور الوسطى وطرق أبواب العصور الحديثة ٠٠ ولا يعنيني أنه ذبح المماليك في القلعة أو أنه خاض حروباً انتصر في بعضها وخسر البعض، فهو مثله في ذلك مثل نابليون فلقد خرج المصريون بواسطته وقيادته من أسر العصور الوسطى إلى درجة أفضل. لقد بدأ يتلمس حدود العصر الحديث ٠

الفترة التالية لصدمة الالتقاء بالحضارة الغربية في زمن محمد علي ٠٠ بدأت تحدث تغييراتها في المجتمع المصري ٠٠ فسنجد أنه بعد سبعين سنة من توليه الحكم، كان بالإمكان أن نجد في مصر بجوار دار الأوبرا والأورمان وحديقة الحيوان والكباري والقصور ٠٠جمال الدين الأفغاني أيضاً داعياً جديداً ذو منطق مختلف يحيطه الطلاب والموظفون يستزيدون من علمه وآراءه العقلية

" وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس لا يسأم الحديث فيما ينير العقل ويظهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور أو يلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها " ٠

كذلك كان من الممكن أن يطلع الناس على جرائد قادمة من الخارج فيتابعون ما يحدث للعالم. وكانت هناك " حرب بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب " ٠٠٠ أيضاً كان من الممكن أن نجد بعض الجرائد الصادرة باللغة العربية رغم أنها كانت تظاهر الانتصارات الروسية فخلفت تيارات متفاوتة من آراء مختلفة وجدل لم يكن معروفاً من قبل ٠ وهكذا كان للجرائد دور جديد في التنوير لا يزال قائماً.

" عندما حاول الخديوي إسماعيل أن يجعل مصر قطعة من أوروبا لم يكن يُعبِّر فى هذا عن رأيه الشخصي فقط، و إنما كان يمثل شريحة جديدة من المجتمع بدأت تتشكل، و أصبحت ترى أنه من الأفضل لها ربط مصر بأوروبا الحديثة ٠

هذه الشريحة كانت تتكون من كبار ملاك الأرض بعد أن باعها لهم سعيد مقابل دفع المبالغ المربوطة عليها كالتزام لعدة سنوات مقدماً، وأبناء الجاليات الأجنبية العاملة بالتجارة واختلطت بالمصريين كالأرمن والأتراك والأرناؤوط واليونان ورجال المال والسماسرة وتجار القطن والذين تعلموا بالخارج وأصبحوا يتوقون لاحتلال دور أكبر فى إدارة البلاد سياسياً بعد أن سيطروا اقتصادياً ٠

هذه الشريحة لا يمكن اعتبارها إقطاعاً أو رأس مالية، الأقرب لها أن تكون طبقة وسطى تُماثل تلك التي قامت بالإصلاحات الثورية في أوروبا، وتعرضنا

لهـا من قـبل ٠٠ بظهور الـطبقـة الوسطى أصـبـحت القـائد لباقي الـطبقـات، وأصبحت الفئات المخـتلفة مستعدة الآن للتخلص من انتمـائها القبلي والعرقي والدخول في منظومتها الطبقية ٠

ثقافـة الطبقة الوسطى خـرجت في البداية من عباءة الـثقافة الدينيـة السائدة والمتاحة في الكتـاتيب ومدارس المدن الريفية الدينية والأزهر، ثم وفي مـواجهة هذه الثقافة جاءت العناصر المسيحية الأوروبية لتنشئ نُظماً تعليمية مدنية تهتم بالعلوم الحديثة واللغات وتُخَرِّج عدداً من الكتبة وموظفي الحكومة .

بمرور الوقت بدأ طموح البعض يدفعهم لـلتعلُّم في الخارج، وأصبح التعليم العلماني وسيلة تُرقي صاحبه، فازداد عدد المتعلمين خاصة بعد إنـشاء الجامعة الأهلية . وكان لانتشار وسائل الاتصال وتقـدم الطباعة الفضل في تعدد الجرائد والمجلات والكتب المطبوعة بحيث توفرت لمن يريد العامل الحاسم في تخصيب الطبـقة الجديدة لتـسعى بخطى ثابـتة لاستكمـال أبنيتـها الحـضارية من ترجـمة ومسرح وأوبرا وفنون جميلة ؛ أدوات جـعلت مصر والمصريين فى قلب العالم الحديث ٠

ثورة ١٩١٩ على الاحـتلال الإنجليـزي بعد الحـرب العالميـة الأولى جاءت كمنتج نهائي لكل الإرهاصات السابقة، وكـتعبير عن أن هذا الشعب الذي طال ظلمه وتهميـشه قد قرر أن يقتحم المحال ويدق على أبواب المدنيـة الحديثة بقوة وهكذا توالت الانتصارات ٠٠٠ المرأة خلعت حجـابها وطالبت بحقٍ متساوٍ في التعليم والعمل والاختيار وكانت هدى شـعراوى في المقدمة ٠٠ وفي الاقتصاد انتفض طلعت حرب رافضاً السيطرة الأجنبية، وأسس أول بنك مصري خالص

وشـركات تنوعت من غـزل ونسـيج القطن حتـى التمـثيل والـسينمـا، وسعـد زغلول، وبعـده النحاس، وضع أسس الليـبراليـة السيـاسيـة لحزب ضم جـميع المواطنين المصـريـين بغض النظر عن اللون أو الأصل أو الـقـبـيلة أو الدين ٠٠ وثارت معـارك ثقافيـة وفنية كان أبطـالها نجوم مـثل طه حسين وسلامـة موسى والعـقاد وسـيد درويش وعـبد الوهاب و أم كـلثوم ومـحمـود مخـتار وكـامل يوسف..

الأيام التي عاشتهـا الديموقراطية الليبرالية في مـصر بالرغم من ضغوط ملك غير ناضج ومـستعمـر أجنبي، كانت إيذاناً بخروج مصر والـشعب المصري من القـمقم وعـبور بحـر الظلمات، وكـانت كفـيلة لو استـمرت أن تدفع بهـا إلى مكانها المناسب بين دول البـحر الأبيض المتلألئة مـثل اليونان وإيطاليا وإسـبانيا، ولقامت بالدور الصحـيح في إعادة صياغة ثقافـة عربية وحضارة شرقيـة كفيلة بإلهام أعداد متزايدة من مثقفي العرب الذين تعلموا على أيدي أبنائها المنتشرين في جميع الدول المحيطة وتعاطوا فنها وأثروا في مسيـرتها الثقافية الحضارية من خلال هجراتهم لمركز الضوء الجديد في القاهرة ٠٠٠ ولكن ٠

أصر اليهود على متابعة دورهم التـخريبي في المنطقة ولمصر بالخصوص، وكانت مأساة فلـسطين وانهيار القوات المحـدودة التي أُرسلت هناك ٠٠ وعاد الجنود بالمرارة وأحلام رومانسيـة غير ناضجة ليحـرفوا الديموقراطية المتنامية إلى ديكتـاتورية بغيضة بتحـرك عسكري في منتصف القرن العـشرين، ليجـهض حكم العسكر في النصف الثاني من القرن ما كسبه الشـعب في النصف الأول، ويعيدنا قائدهم إلى النقطة صفر مكرراً سيناريو محمد علي نفسه بما في ذلك هزيمة عسكرية قاصمة للظهر.

والآن ونحن نتحرك في ركاب أقوى إمبراطورية معاصرة ٠٠٠٠ تنتشر صواريخها النووية عبر القارات، وتسيطر على الاقتصاد العالمي وعلى الثقافة الإنسانية، وعلى التطور الحضاري العلمي التكنولوجي، تبهر العالم كل يوم بما هو جديد فتّاك وساحق ٠٠ أصبحنا في مواجهة تحدي لم تشهد الأمة مثيلاً له خلال ستة آلاف عام مضت حتى تنال شرف الأمة التابعة ٠٠٠ إنهم يطالبوننا بمراعاة حقوق الإنسان وحرية المرأة و إصلاح أنظمة الحكم ومقاومة الإرهاب .

وللأسف إنهم لا يدرون - وقد لا ندري مثلهم - أنها كلها ابتكارات مصرية علمها المصرى للعالم مع بدء الزمان ٠

فحقوق الإنسان بالرغم من كل ما قيل عن الفراعنة من دعاوى اليهود، إلا أن التاريخ له قصة أخرى عنها، قد نقرأها في صحائف الفلاح الفصيح أو فيما قدمه لنا برستيد عبر صفحات عديدة من كتابه " فجر الضمير " أو حتى فيما كتبه اليهود أنفسهم عن فرعون إبراهيم وفرعون يوسف اللذين كانا نموذجاً فيما يجب أن يكون عليه الحاكم فى مراعاة حقوق الإنسان حتى لو كان عبرانياً ٠٠٠

في مصر كانت المرأة ربة وإلهة و أم جسدتها إيزيس، وكانت السماء التي تحمي الأرض بجسدها مثل نوت، وكانت الحق والعدل والاستقامة ماعت ٠٠ المصري أبدع أجمل و أرق وأرقى نموذج للمرأة على مر التاريخ تحسدها عليه المرأة القديمة كاليونانية والفارسية والعبرية والمرأة المعاصرة التي لاتزال تصارع لتصل إلى مكانة المصرية القديمة ٠٠ واليوم نجد أن المرأة قد احتلت معظم مقاعد الدراسة في الجامعات والمعاهد العليا بحيث تصل في بعضها إلى نسبة ٩٠٪ كما فى المعاهد التي تؤهل المعلمين إلى ٨٠٪ فى الكليات النظرية والعملية ٠٠

بل و هي تحتل المراكز الأولى في كشوف الناجحين ٠ والمصري منذ مينا وعلى طول السنين أدار أنظمة دولة متكاملة، فله الفضل في تعريف العالم بأنظمة المحاسبة والضرائب والمساحة والقضاء والتعليم وباقي قواعد البيروقراطية المتبعة حتى اليوم والتي اقتبسها منه الإغريق واقتبسها منهم العالم٠

ومصر لم تعرف الإرهاب والتفرقة الدينية، فطول تاريخها كانت تنعم بتسامح ديني يحترم فيه الأخ دين أخيه، احترامه لآلهته نفسها حتى غزتها أنظمة البترودولار بأنماط فكرية مستوردة من الخليج وإيران وأفغانستان وباكستان وما على شاكلتها ... وليكن إذا تخلص المصري من أوزار اضطهاد وذل وتهميش دام لآلاف السنين ٠٠ إذا كان قادراً على اقتحام عالم اليوم بعلمه وفنه وثقافته وحضارته قبل تاريخه، فسنبقى أمة قادرة كما كنا دائماً ٠

رابعاً: طلسمات فكرية

أماني القرن الجديد

على عكس ما حدث خلال القرن الثامن عشر من غيبوبة نتيجة نقص المعلومات الحاد ٠٠ جاء القرن الحادي والعشرين، وقد أحدثت التكنولوجيا تطوراً راديكالياً في تبادل وتناول المعلومات جعلها تنتشر في جميع اللغات بسرعات غير مسبوقة وبكميات لا يمكن حصرها بواسطة الفرد العادي ٠٠ فالباحث على شبكات الإنترنت أو أرشيف المكتبة العملاقة للكونجرس الأمريكي سيجد أمامه العديد من الأفكار وعكسها، والدراسات المستفيضة هنا التي تنقضها أخرى هناك، فإن لم تكن مستعداً فنياً ومدرباً على تناول هذا الكم

الهائل من المعلومات فإنك حتماً سترتبك إلى درجة العجز بنفس قدر العجز الذي كان يعاني منه نظيرك في القرن الثامن عشر نتيجة نقص المعلومات .

الأمم التي سبقتنا في تناول هذه التكنولوجيا، أوجدت لنفسها أساليب وآليات خاصة للتعامل مع تلك الإشكالية وازنت بين إمكاناتها وقدرات مجتمعها وتوجهاتها الأيديولوجية من جهة، واحتياجات معالجة المعلومة بحيث تصبح مؤثرة في التوقيت الصحيح من جهة أخرى.

في الولايات المتحدة الأمريكية حول بداية تسعينيات القرن الماضى صدر كتاب بول كنيدى بعنوان " صعود وسقوط القوى العظمى " بحث فيه العلاقات المتغيرة بين الأمم عبر فترة خمسمائة عام، وبناء على تحليلاته توصل إلى نتيجة مفادها أنه عندما " يختل توازن الالتزامات الأمنية والمقدرة الاقتصادية للقوى العظمى فإنها تسقط وتنحدر ... " ثم حذر بأن " كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يقفان عند مثل هذه النقطة " .

روبرت مكنمارا ومجموعة من الباحثين، نتيجة لتلك الأضواء الحمراء، بدأوا فى دراسة الموضوع للإجابة على سؤال هل حقاً أمريكا على وشك الانحدار ؟ .. فوجدوا أن على الإدارة الأمريكية " في ذلك العصر النووي أن تجد وسيلة أخرى لإدارة الأزمة غير المواجهة .. وأن عليها تخفيض التوتر السياسي بين الشرق والغرب ووضع أسس نظام جديد للقرن الحادي والعشرين. " روبرت مكنمارا في كتابه " ما بعد الحرب الباردة " حدَّدَ ملامح هذا النظام:

١) الوصول إلى تحييد العالم الثالث عسكرياً.

٢) التزام القوتين العظميين بتخفيض حاد يصل إلى حد إنهاء دعمهما للمواجهات العسكرية بين دول العالم الثالث أو الصراعات الحزبية المعارضة في هذه الدول .

٣) تأكيد دعم أنظمة أمن جماعي لدول الجنوب وآليات لحل الصراعات الإقليمية ذاتياً دون تدخل من القوى العظمى .

٤) زيادة انسياب كل من المساعدات التقنية والمالية للدول النامية لمساعدتها في التعجيل بمعدلات تقدمها الاجتماعي والاقتصادي .

وفي النظام الجديد إشارة إلى " الحل النهائي لمشكلة الشرق الأوسط يتطلب قبولاً عالمياً بما في ذلك إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية لكلٍّ من حق إسرائيل في أن تعيش في سلام وحقوق الفلسطينيين في وطن وبعض أشكال الحكم الذاتي في الضفة الغربية " .

أما عن الخليج الفارسي " فقد يستجد ثانياً ما يعطل سهولة حركة نقل بترول الخليج الفارسي، إذا ما حدث هذا فعلى الولايات المتحدة بدلاً من إدخالها لقواتها البحرية هناك منفردة، كما فعلت في عام ١٩٨٧ أن تدعم فكرة إنشاء قوات من الأمم المتحدة تضمن أمان إبحار ناقلات البترول " .

في نهاية الدراسة جاء " بتلك الإمكانيات لا يوجد نظير للولايات المتحدة مؤهل للولوج في القرن الحادي والعشرين كأقوى أمة في عالم متعدد الأقطاب تصل فيه مخاطر الحرب بين كتل القوى العظمى إلى حدها الأدنى .. بمقدورنا أن نصبح أكثر قوة منا اليوم سواء اقتصادياً أو سياسياً أو نفسياً " .

بعد تلك الدراسة، الرئيس بوش ومستشاروه قرر التخلص من الاختلال

الاقتصادي الناتج عن الالتزامات الأمنية للولايات المتحدة .. ففتح جبهة قتال في الخليج كان نتيجتها بيع مخزون السلاح والذخيرة بالغ التكلفة لدول الخليج أو قل صحح مسار اقتصاده بفاتورة تكلفة الحرب التي تقدم بها لأصحاب البترول الأغنياء .. ثم نقل أسلحته التي كانت في قواعده بأوروبا إلى دول الخليج بما في ذلك الأسلحة النووية مخلياً التزامه بضمان أمن أوروبا النووي .. وألزم الدول التي لم تشارك في الحلف أن تدفع ثمن عدم مشاركتها خصوصاً اليابان وألمانيا، ووضع جنوده حول حقول البترول .. نتج عن هذا رخاء للمجتمع الأمريكي استمر طول فترة رئاسة كلينتون الرئيس الذي تلاه ..

بمعنى آخر إن المجتمع الأمريكي قد خلق أدوات تصحيح المسار ممثلة في الصحافة ومراكز الأبحاث الأكاديمية غير الحكومية، وسمح لها بحرية التفكير والنقد والاقتراح وإضاءة الأنوار الحمراء دون توجيهات من أي شخص حتى لو كان الرئيس نفسه .. الأبحاث التي تقوم بها المراكز المتخصصة تحظى بعناية فائقة من القيادة الحكومية وتأخذها بمأخذ الجد ويظهر تأثيرها واضحاً في القرارات الاستراتيجية والسياسية اليومية. على الجانب الآخر، أوروبا لمواجهة السياسة الأمريكية الجديدة تسعى إلى تكوين أوروبا الموحدة والعملة الموحدة وتضم إليها شتات أوروبا الشرقية .. أما الاتحاد السوفيتي فتحدث داخله تغييرات جذرية من المهم تأملها على أساس أنه نموذج للأمة المحكومة بنظام الحكم الشامل المفضل لدى الحكام الشرقيين .

جورباتشوف في كتابه البريسترويكا، وضع يده على قلب المشكلة " هناك استنتاج آخر، يعتبر في رأيي أهم استنتاج - يتمثل في أننا يجب أن نعتمد على

مبادرة الجماهير وإبداعاتها وعلى المشاركة النشطة لأوسع أقسام السكان في تنفيذ الإصلاحات المرسومة وفي إشاعة الديموقراطية مجدداً".

" وتواجهنا هذه المرحلة الجديدة بالحاجة إلى إعادة النظر في كثير من المسائل النظرية والأفكار القائمة على الاشتراكية " .

" وقد جرى تمجيد هذه الأشكال وتقديسها وتحولت إلى عقيدة جامدة ومن ثم كانت هذه الصورة العقيمة للاشتراكية والمركزية المبالغ فيها في الإدارة وإهمال التنوع الفني للمصالح البشرية والتهوين من الدور النشط الذي يلعبه الناس في الحياة العامة واتجاهات المساواة الصريحة " .

" وضعت البريسترويكا مهام جديدة لسياستنا وفكرنا الاجتماعي، وتضمنت وضع حد للتحجر الفكري الاجتماعي من أجل إعطائه آفاقاً أرحب والتغلب بشكل كامل على آثار هذا الاحتكار للنظرية والتي تميزت به فترة عبادة الفرد " .

ثم خلص إلى أنه " ينبغي إجراء تغيير حاد في الفكر السياسي والاجتماعي".

وهكذا فرض التغيير نفسه على القوتين العظميين، وظهر بها فلاسفة ومبشرون يدعون إلى أنظمة جديدة تدين الثبات على أساس أنه مظهر " للعجز عن التطور وملاحقة الجديد لا علامة على الاستقرار والأمان " .

«ألفين توفلر» مبشر أمريكى آخر أكد هذه الفلسفة في كتابه " صدمة المستقبل " محدداً " أن التسارع الرهيب الذي أصبح الصفة اللاصقة بعملية التغيير فى وقتنا الحاضر قد أصبح في حد ذاته قوة أساسية، فلهذا الاندفاع

المتسارع تأثيراته الذاتية ومعقباته الخطيرة من النواحي النفسية والاجتماعية ... إننا نحن البشر إذا لم نستطع أن نتحكم في معدلات التغيير فى شئوننا الخاصة وفي المجتمع ككل، فإنه مقضي علينا لا محالة بالتعرض للانهيار الجماعي كنتيجة لعجزنا عن التكيف مع عملية التغيير " .

بمعنى آخر .. إن لم تستطع أمة ما استيعاب التطور العالمي، فإن الأمم الأخرى الأكثر وعياً هي التي ستحدد لها هامش حركتها ودورها في العملية الإنتاجية الشاملة بالنقص أو الزيادة دون أي مراعاة لرغبة هذه الأمة أو لقدراتها الحقيقية أو آمالها القومية .

وهو الأمر الذي رفضته أوروبا وروسيا وكثير من دول جنوب شرق آسيا في مواجهة الهيمنة التي يبشر بها مكنمارا في كتابه السابق عرضه. أما في مصر فلقد تم ترسية علاقة أخرى ربطت قاطرة المساعدات الأمريكية بالعربة المصرية لتصبح واحدة من سلسلة العربات التي لا تستطيع الفكاك من شبكة النظام العالمي الجديد (الأمريكي الصنع) .

وهكذا .. رغم معرفتي بأن عالم اليوم يختلف اختلافاً راديكالياً عن ذلك الذي كان عندما تربع تحتمس الثالث بعرشه فوق قمة العالم ، إلا أن بداخلي - مثلي في ذلك مثل باقي أبناء الشرق مبدعي مصباح علاء الدين السحري ومعجزاته - ما يجعلنا نرفض واقع الهيمنة ونتوق لأن نسترجع مكاناً احتله من قبل الجدود .

حلم الصعود الرومانسي هذا قد يثير سخرية عالم اليوم الذي أصبح في حالة ذهنية ومادية تجعله لا يتقبل مثل تلك الشطحات، فعقلية الغربي اختلفت

اختلافاً بيناً عن عقلية الشرقي التي فُطرت على اجترار أحلام الميتافيزيقيا، وتطمع دائماً في حدوث معجزة تُبَدِّل الأحداث لصالحها وتُعيد صياغة نُظم حركة الكون والبشر بحيث تعمل وفق أهوائها .. الشرقي عادة ما يبني أفعاله للمجهول، وينشغل بالبحث عن قوى خفية مؤثرة، وعن المؤامرات التي تُحاك للإيقاع به، وعن كائنات غير مرئية من عفاريت وجن تعاونه أو تعرقله وقدرات غير محسوسة كالسحر والحسد، وأسباب غير منطقية كالتفاؤل والتشاؤم واستطلاع الغيب.

في حين أن الغربي الشمالي يتجه بحكم العادة والتربية إلى البحث والتحليل والاستقصاء وطرح الفرضيات ثم تصويبها من خلال التجربة والتأمل في سلسلة صاعدة تجاه الحقيقة .. الغربي الشمالي يسأل ويجمع المعلومات يصنفها ويبوبها ويختبرها ويصفيها ويستخدمها في خطط المستقبل أو متابعة الحاضر فيتقدم الصفوف .

كنموذج تداولناه بالعرض مسبقاً، سنجد أن مؤرخي العرب وعلماء الحملة الفرنسية، كان لهما موقفان متباينان من الآثار المصرية غير المقروءة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

فالعقلية الشرقية اخترعت لها أسباباً سحرية ووظائف طلسمية، في حين أن الغربي لاحظ ودقق وصحح ما توصل إليه بجدية ودأب استمر لعشرين سنة حتى انفكت رموز اللغة، ففهموا وفهمنا .

قد يكون جهد الغربي في حاجة إلى مداومة البحث والدراسة للوصول إلى إجابات أكثر دقة، ولكن ما قدمه الشرق كان بالتأكيد ترهات وقصصاً خيالية

تنتمي لتلك التي بألف ليلة وليلة .

المصري يسير اليوم مُحمل الكاهل بمكتسبات سحرية ميتافيزيقية متراكمة عبر آلاف السنين منذ العصر الحجري، على هيئة تابوهات غير قابلة للمناقشة أو النقد أو التفسير.. قد لا يشعر بها، ولكنها تتبدى في كل تصرف من تصرفات يومه حتى أقلها شأناً .

ومع ذلك فهناك من كان «علمي الاقتراب والمنهج» عندما تصدى لموضوعات أتقنها وتعلمها سواء بجهد الاطلاع والبحث الشخصي أو بالتعلُّم من علماء الغرب. هؤلاء العلماء من مثقفي النصف الثاني من القرن العشرين، رغم صدق نواياهم وشعورهم بالمسئولية تجاه وطنهم وأهلهم، إلا أنهم قوبلوا بالصد والتجاهل وفي بعض الأحيان بالعدوانية من الحكام ودوائرهم اللصيقة .

وأماني هؤلاء المثقفين جاءت خلال برنامج للإصلاح السياسي والديموقراطي يبدأ بحرية التنظيم السياسي والنقابي، وإلغاء القيود المفروضة على النشاط السياسي الجماهيري، وحق كل القوى السياسية في تشكيل أحزابها.

وأنا أضيف لهذه الأماني مراجعة ترسانة القوانين والنصوص والتعليمات المختلفة بحيث تناسب ما يطرحه العصر من قيم .. فالمصريون بتقديس غريب للنصوص القديمة راكموا قوانين الاحتلال العثماني وفرامانات الباب العالي مع قوانين إسماعيل العصرية وقوانين ثورة ١٩١٩ الليبرالية، جنباً إلى جنب مع قوانين الحكم الشمولي والانفتاح الاقتصادي، والحزب الواحد مع التعددية الحزبية، وسيطرة القطاع العام مع آليات

السوق، في منظومة عز وجودها إلا في مصر بلد الطلسمات .

الدكتور وليم سليمان قلادة في كتاب " مبدأ المواطنة " يكتب :

"حقوق الإنسان نوعان ؛ الحقوق المدنية والحقوق السياسية، الأولى تهدف إلى ضمان مجال شخصي لكل عضو من الجماعة يمارس فيه بحرية نشاطاً خاصاً دون تدخل من الغير أو الدولة، طالما أنه لم يرتكب ما يخالف القانون مثل حرية الرأي وحرمة المنزل وحق الملكية ... أما النوع الآخر من الحقوق فهو أكثر فاعلية إذ تضمن لصاحبها المساهمة الإيجابية في ممارسة السلطة العامة في بلاده من خلال المشاركة في مؤسسات الحكم السياسية والقانونية والدستورية .... هكذا يمكن القول إن النوع الأول هي حقوق الإنسان بصفة عامة، أما النوع الثاني فهي حقوق المواطن " .

" فعلى أساس هذه المشاركة يكون الانتماء للوطن، ومن خلال المشاركة تأتي المساواة، فلكل مواطن نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات، فلصفة المواطنة ثلاثة أركان: الانتماء للأرض والمشاركة والمساواة، أي الندية ومن ثم يأتي جهد الشخص في إطار الجماعة السياسية لممارسة صفة المواطنة والتمسك بها والدفاع عنها " .

الدكتور وليم سليمان بتأمله للتاريخ المصري يصل إلى مفهوم أن هناك " انفصال قاطع بين الحكام والمحكومين استمر على مدى مئات / آلاف السنين. إن خطاً أفقياً حاسماً حاجزاً يقسم المجتمع المصرى إلى شريحتين ؛ أعلى الخط الفاصل يجثم الحكام يتمسكون بأسانيد يمارسون على أساسها إخضاع المحكومين، ويبررون بها - في مواجهتهم - سلطتهم بما يضمن بقاء هذه السلطة

في أيديهم واستمرار تداولها فيما بينهم طبقاً للنظم التي أقاموها لتأييد مراكزهم . هذه الأسانيد والنظم هي مضمون " فقه الحكام، وأسفل الحاجز يقر المحكومون " أهل الأرض " بجميع مكوناتهم ولهم أيضاً مفاهيمهم وتوجههم وعلاقاتهم ببعضهم البعض وبالحكام، وهم ليسوا قابعين أسفل الحاجز في سكون بل ثمة حركة تتراكم مقوماتها الجغرافية والإنتاجية والحضارية والفكرية ينهض بها المحكومون وتنطلق من شعورهم بالظلم الذي يمارسه عليهم الحكام فيرفض المحكومون الخضوع " لفقه الحكام "، ويصممون على اختراق حاجز السلطة ... لتكوين " فقه المحكومين ". وهكذا بين فقه الحكام وفقه المحكومين " بدأ الكفاح الوطني الذي بلغ ذروته عام ١٩١٩ لتبدأ مصر مرحلة جديدة في محاولاتها للوصول إلى الصيغة المناسبة للحكم في إطار الاستقلال، وهنا تعاون الاحتلال والقصر لإجهاض التجربة الليبرالية في ضربات متوالية، فلما انتهت الحرب العالمية الثانية وبدأت شعوب العالم مرحلة جديدة من الكفاح ومن بينها مصر كانت ضربات الإجهاض تتوالى خلال فترات .... قامت إسرائيل عام ٤٨ والعدوان الثلاثي ٥٦ ثم حرب ٦٧، كل عشر سنوات في المتوسط، لتستهلك أولاً بأول كل ما يتراكم من جهد الشعب لتحقيق التنمية في مختلف مجالاتها مع ما يصحب الضرورات الحربية من ضبط المجتمع كله بالأسلوب العسكري " . وضاعت حقوق المواطنة بنوعيها .

الأستاذ أمين هويدى في كتابه " الفرص الضائعة " يكتب:

"التحدث عن الحقيقة وعن القرارات الحاسمة في حربي الاستنزاف وأكتوبر أمر محفوف بالحساسية والصعاب وسط السيل الجارف من المطبوعات

والأحاديث التى أغـرقت الحقائق فى قاع ليس له قـرار عن قصد أو غيـر قصد، وأمام الموانع والسدود التي تقيمها المواد القـانونية التي تطبق بطريقة انتقائية على مراحل من حيـاتنا دون أخرى، يضطر الباحثـون عن الحقيقة إلى الاعـتماد على المصـادر الأجنبيـة لمعرفـة ما جـرى على أرض بلادهم بما في ذلك من محـاذير وأخطار " .

"ففي الحروب العديدة التي اضطررنا إلى خوضها ظهرت سلبيات كثيرة هنا وهناك، وهذا ليس عيـباً ولا نقصـاً ؛ فالعيـوب والسلبيات ظاهرة تلازم عـملية الصراع ولكن الـعيب كله في محـاولة التسـتر على الأخطاء والسلبـيات أو في قلب الهـزائم إلى انتـصارات أو علـى العكس من ذلك تحـويل الانتصـارات - حتـى لو حقـقها الـعدو - إلى هزائم، فـخيـر لنا أن نتعلم من أخطائنا حـتى لا نكررها " .

"علاوة على أن صدور القـرارات على المستوى الاستراتيـجي في بلادنا غير واضح الحدود والمعالم، لطبيعة نظم الحكم السائدة التي يُعـتبر فيها الحاكم بمثابة مركـز القوة الوحـيد بغـض النظر عن تعدد المؤسـسات من حـوله والتي تعطي الرئيس الحق في أن يصدر قـرارات في أمور ربما تتجاوز مـعرفته بهـا سواء من الناحية العلمية أو من ناحية الخبرة والممارسة " .

الرئيس السادات خلال حـرب أكتوبر أصدر " قـرارات استراتيجيـة خاطئة أثرت على نتيجة القـتال، فقد أصدر قراره بأن يكون الغـرض من حرب أكتوبر في غاية التـواضع تحت شعار الحـرب المحدودة التي لم يفهم أبعـادها تمام الفهم وأمر بتوزيع قـواتنا المدرعة وتفتيـتها حتى قبل بداية القـتال، مخالفـاً بذلك مبدأ

حشـد المدرعات، وبالـتوقف بعـد نجاحنا في عـبور القناة، وبعـد أن سنحت لنا الفـرصة الذهبـية لأن نمسك بـتلابيب العـدو بعد أن هزتـه المفاجـأة ثم بالتقـدم للشرق بعد أن اسـتعاد العدو المبادأة واسـتعد لملاقاتنا رغمـاً عن اعتراض رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقائدى الجـيشين الثاني والثالث ثم رفضه الكامل لإعادة تنظيم القـوات تبعاً لتطور العـمليات مما أدى إلى عبور العـدو إلى غرب القناة ليقطع خطوط مواصلات قواتنا في الشرق " .

"وبلغ عدم المعرفة بالموقف حداً غريباً بحق، فحالة قواتنا لم تكن معروفة ... ولذلك لم يكن غريباً أن قراراً واحداً من القرارات التي أصـدرتها القيادة العامة للقوات المسلحـة لم يجد طريقـه إلى التنفيذ طوال العـشرة أيام التاليـة لحدوث الثـغرة، إذ كـانت القـرارات تصدر ليـفشل تـنفيـذها أو لتلغى لتـغيـر الظروف بسرعة. ويمكننـا أن نجزم باطمئنان أن العدو في طريقه إلـى السويس والأدبية لم يقابل إلا بمقاومات ذاتية وليس باستراتيجية موضوعة لمواجهة الموقف الجديد " .

تُرى بعـد أن كتب أمين هـويدى هذا، هل حدث تغـيـير في أسلوب اتخـاذ القرار !!

الأستاذ عادل حسين في كتابه «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية» يتضـرر أيضاً من " أن المعلومات الضـرورية لفهم ما حـدث أو للبحث العلمي يصـعب التـوصل إليـهـا، ولا أقصـد في المقـام الأول المعلومـات الكمـيـة عن المتغيرات الكلية (الناتج القومى الإجمالى، أرقام الادخار والاستثمار ... إلخ) أو عن تطور القطاعات الاقـتصادية المختلفـة (الصناعة وفروعهـا، الزراعة وما يتـعلق بها، النقل والمواصـلات ... إلخ) الحصـول على المعلومـات الكاملة فى

هذا المجال صعب على الباحث الوطني بقدر سهولته على الهيئات الأجنبية والباحثين الأجانب . ومع ذلك فإن ما يعنيني في الأساس وما أقصده هو الحصول على المعلومات الكافية والحقيقية عن أسلوب تقرير السياسات الاقتصادية ، فالمعلومات هنا أكثر أهمية والحصول عليها أشد عسراً . إن الهيئات الدولية بقيادة الولايات المتحدة تسيطر على الإدارة الاقتصادية في الدول التابعة (التي تُسمَّى للتضليل النامية) ولكنها تمارس هذا الدور في سرية بالغة. الوثائق المثبتة لطبيعة هذا الدور ومداه لا تصل إلى يد الباحثين والسياسيين الوطنيين أبداً".

"وفي الحالة المصرية خططت الولايات المتحدة مباشرة ومن خلال الهيئات الدولية (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير) لكي تعيد الدولة المصرية (وسياستها الاقتصادية) إلى وضع التبعية، وقد نجح مخططها و أصبح الاقتصاد المصري خاضعاً بالفعل لإدارة أجنبية، ولكن نجحت السرية في إخفاء معالم ما تحقق وكيف تحقق " .

وعادل حسين يرى أن " الفكر العربي في تصديه للمشاكل القومية كان رومانسياً في أغلب مراحله، وبأنه أهمل الجانب الاقتصادي فترة طويلة ... والجوانب الحضارية والجيوسياسية، ولكن أخطر من ذلك أنه لا يبحث - حتى الآن - كل هذه الجوانب في إطار كلي، أي كمكونات متكاملة ومتفاعلة في نسق ديناميكي. هذا هو القصور المنهجي القاتل - على المستوى النظري - ولذا فإن أغلب الدراسات الاقتصادية (وقد تدفقت بمعدل هائل) لا يسد ثغرة من ثغرات الفكر القومي على نحو ملائم، لأنه لم يرتبط عضوياً بطبيعة النسق الحالي أو المستهدف ... "

غيـاب الإطار الكلي للاستراتيـجية المصرية أدى إلـى التبعيـة في رأى عادل حسين "ويمكننا أن نرصد تنامي مكونات خاصة بل نسق متمـيز لعلاقات التبعية في أيامنا هذه، فمع بداية الثورة الـصناعية الثانية التي تشهـدها دول الشمال ... أصبح مـركب أدوات الإلحاق والتـبعـية أكثـر تعقـيداً، فـالهيمنـة المتنامية لـقيم الحضارة الغربية ونظم التعليم والتربية لفئات اجـتماعية متوسعة، خاصة النخب السياسـية والفنية ، تنعكس في أنماط سلوكية أو اسـتهلاكية غيـر ملائمة. وهذه البنية الاستهلاكية تحدد التـوجهات المشوهة للتنمية وتربط القطاع المحلي بمراكز القيـادة في الغرب، وفي إطار ضـبط للأداء الاقتـصادي وفق المبادئ الـتي تحقق هيمنتها .... " . هو الدولار بكام النهارده ! !

الدكتور أحمـد زكي في كتابه " الحرية " يكتب " إن المجتمـعات البدائية هي أقل المجتـمعات حـركة وأقلها تغـييـراً وتبدلاً، ذلك لأن الانسجـام كامل فيـها عادات مـوروثة يقبلها المجـموع. لا يفكر أحد في احـتمال قبـولها أو رفضـها، وصـور من الولاء كذلك مـوروثة لا يفكر أحـد في اسـتكناههـا، وقواعـد من السلوك - محرمـاً ومستباحـاً - لا يفكر أحد فى الخروج عليهـا وإن غلبه أمرها فخـرج عليها لا يخـرج جهاراً. وصفـوف من العمل في اجتـلاب الرزق بدائية وهي قليلة التـنوع وهى ثابتـة كـالجبـال القـائمـة وراء القـرية لا يفكر أحـد في تحولها.

الفردية في مثل هذا المجتمع مـفقودة ومن أجل هذا سكن ومن أجل هذا جر عليه الدهر أذياله خفيفة لا تكاد تحرك فيه ساكناً .

وغير ذلك المجـتمع المدني المتقدم، المجتـمع الذي فيه كل فرد مركـز للحركة

جثمانية وفكرية تقل وتزيد، وفيه التقاليد ولكن ليس لها كبير وطأة، له أن ينظرها وله أن يغيرها إذا رأى أنها لا تستقيم وحاضر دنياه، وهو يرضى بالذي يرث من علم ومن فن ومن مهنة رزق ولكنه يطلب المزيد .. هذا التطلع في الفرد في المجتمع المتقدم هو سر تقدمه. كل علم فيه علم فرد. وكل حيلة وكل تكنية إنما هي حيلة فرد. وتكنية فرد والأدب أدب فرد. والفلسفة فلسفة فرد، إنه فرد يرث لا من أبيه وحده ولكن من كل فرد آخر يلقاه في مجتمعه ويتحدث إليه الحديث الحر ويناقش ويجادل، ونتاجه نتاج فرد ولكنه فرد في مجتمع ...".

وتحت فصل " الجدل آداب لابد من إحيائها " كتب:

"من نقاد العرب من لا يعرف الجدل إلا اشتباكاً واعتراكاً ومشاحنة تنتهي بالقذف بالأعراض، وإن أنت اختلفت معهم في سياسة فأنت المنحرف المارق، وإن أنت اختلفت معهم في أمر ديني فأنت الزنديق الكافر، وإن أنت اختلفت معهم في موضوع خلقي فأنت المتفسخ الفاجر .. عندهم إن تجريح الشخص المجادل في نفسه أو في ذويه أيسر وأكثر قبولاً عند الجماهير من تجريح موضوع الجدل" .

"إن الشعوب في عمومها لا تعرف المنطق ولا يمنعنا ذلك من القول بأن الشعوب هي مصادر السلطات، ذلك لأنه ليس غير الشعوب من أحد ترد إليه سلطاناً. إنها أمور ثلاثة يتمزق فيها المنطق هكذا تمزقاً:

١ - المواضيع الدينية.

٢- المواضيع السياسية .

٣- المواضيع الأخلاقية .

والعادة جرت على رمى صاحب الرأي بالحجر أولاً ثم رمي رأيه. فإن هم فتكوا الرأي فيها و إلا ففي قتل الرجل قتل لرأيه وفي هذا الفناء كل الفناء " .

والسؤال الآن أي شعوب يقصد الدكتور أحمد زكي، شعوب المجتمعات البدائية أم شعوب المجتمع المدني ؟

سلامة موسى في كتاباته التنويرية حول منتصف القرن العشرين كان يعرف أن المجتمع يقاس مدى تقدمه من علاقة الرجل بالمرأة، لذلك فهو في كتابه " المرأة ليست لعبة الرجل " يحرضها " إني أدعوك أيتها المرأة المصرية إلى أن تثبتي وجودك الإنساني والاجتماعي في الدنيا بالعمل والإقدام، وأن تختاري حياتك واختباراتك .. أدعوك إلى أن تدربي ذكاءك وتربى شخصيتك وتستقلي في تعيين سلوكك وتزدادي فهماً وخيراً ونضجاً بالسنين .

لا تكوني لعبة نلعب بها نحن الرجال للذتنا، نشترى لك الملابس الزاهية والجواهر المشخشخة، ونطالبك بتنعيم بشرتك وتزيين شعرك وكأن ليس لك في هذه الدنيا من سبب للحياة سوى أنك لعبتنا نلعب بك ونلهو ...

أنت إنسان لك جميع الحقوق الإنسانية التي للرجل، فلا تقبلي أن ينكر عليك أحد هذه الحقوق وأن يعين لك طراز حياتك .

أنت إنسان لك حق الحياة واقتحام التجارب البشرية وحق الإصابة والخطأ، لأنك بغير ذلك لا تحصلين على تربية إنسانية " .

والمرأة مع ثورة ١٩١٩ خرجت جنباً إلى جنب مع الرجل في مظاهرات ضد الاحتلال، وكشفت عن وجهها متخلية عن حجابها .. وانتظمت في التعليم بالمدرسة والجامعة وأصبحت وزيرة وسفيرة ونائبة فى البرلمان. ورغم كل هذه

الإنجـازات، فإن هناك اقـتناعاً داخـلياً بالدونيـة وبعـدم القدرة والكفـاءة يشكل ضبـاباً على فكرها ويمنعـها من الانطلاق لتلحق بزمـيلاتها في أمـريكا وأوروبا وبعض دول آسيا .. شئ ما حدث للمرأة المصرية منذ ارتفاع أسعار البترول بعد حرب ٧٣، وتراكم العـائدات، وسفـر المصريين إلى الخليج فـيما يسـمى حقـبة البتـرودولار، لتعود زاهدة في كل إنجـازات الجدات والأمهات وتضع الحـجاب بيدها على رأسها وعقلهـا .. " الذكاء والعبقرية هما صفتان اجتـماعيتان ونحن أذكيـاء ونحن عبـاقرة بقدر اهتـمامنا بالشـئون الاجتـماعـية التي نشتـبك فيـها ونحاول حلها ونكافح بآرائنا وعواطفنا فيها ....».

إننا كثيراً ما نجد شاباً أو فتاة علـى ذكاء طبيعي كبير ... ونجد أن هذا الشاب أو الفتاة لم يبديا أي نشـاط يدل على ذكائهما، بل أنهما حين يعالجـان موضوعاً من الموضـوعات العـامة يبدو عـليهمـا القصـور الذي يقارب الغـفلة، فمـا هو السبب؟

السبب أن كلاً منهـما قد نشأ في قيـود نفسية وذهنية داخليـة جعلت الخوف يشل ذهنه، ونحن نُسـمي هذا الخوف «حيـاء أو وقار»، ولكنه هو في صـميـمه خوف من التفكير والتعبير، أي أنه قيد لحرية التفكير والتعبير ..

ذلك أن هناك عادات وقواعد وتقاليد تحـول بيننا والتفكير الحر ؛ أي التفكير السلس الذي يمضي في طريقه بلا عقبات " ... وهذا هو السبب في عدم القدرة على الابتكار .

الدكتور عبد المنعم تليمة في مقـدمة كتاب طه حسين " في الشعر الجاهلي " كتب "وقـد فتح الكتاب - وهو يعـالج مادته الأدبية - باباً واسـعاً في النظر إلى

التراث، ودعا إلى مناهج جديدة لدرس هذا التراث وتقويمه، وأثار جملة هامة من المسائل الدقيقة التي تتصل بأفكار ومفهومات ثقافية وتاريخية وفكرية وعلمية . ويجد مدون التاريخ العربي الحديث في الكتاب مادة صالحة لبيان سبيل النهوض وتحرير العقل والإصلاح الثقافي بعامة " .

تحرير العقل تَمثَّل فيما جاء في كتاب طه حسين " إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وما بقي من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في إستخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي " .

" إن ما نطالعه على أنه شعر امرىء القيس أو طرفه أو عمرو بن كلثوم أو عنتره ليس من هؤلاء في شيء وإنما هو انتحال الرواة واختلاق الأعراب أو صنعة النحاه أو تكلف القصاص أو اختراع المتكلمين والمحدثين والمفسرين " .

ثم يعلق تليمة "هذا الشعر الجاهلي الذي صنعت كثرته ووضعت بعد الإسلام وبخاصة في القرن الثاني الهجري قرن الجمع والتدوين ... أسباب ذلك مدارها السياسة والدين والشعوبية والقصص والرواة ..ويقصد بالسياسة العصبية القبلية، فقد أرادت القبائل في صراعها بعد الإسلام أن تجعل لنفسها مجداً قديماً فلجأت إلى وضع أشعار نسبتها إلى الجاهليين من شعرائها. ومن شواهد السبب الديني أن اليهود والنصارى قد وضعوا بعد الإسلام شعراً كثيراً نسبوه إلى أسلافهم الجاهليين، أما الشعوبية فدليل اتصالها بوضع الشعر ونسبته

إلى الجاهليين أن بعض علماء اللغة والرواة في العصر العباسي قد صنعوا شعراً يمجد الماضي الفارسي وجعلوا هذا الشعر على ألسنة شعراء جاهليين تقرباً من الوزراء الفرس - البرامكة - وأما القصاص فقد وضعوا شعراً نسبوه إلى الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية ذكروا فيه أمجاداً قديمة للقبائل وأحداثاً لأمم وشعوب وقبائل بائدة إلى جانب ما وضعه بعض هؤلاء القصاص من شعر زعموا قدمه وجعلوه على ألسنة كائنات غير بشرية منها الجن وغير الجن " .

لو استمر منهج طه حسين هذا، ولم يصادر ويحاكم سنة ١٩٢٦، لأصبح لدينا منهج ديكارتي في البحث قادراً على إخراج وإفراز الغث من الثمين، ولما انتشرت الميتافيزيقا والترهات الخاصة بأحط ما أنتجه الفكر العثماني من معوقات تقدم .

الدكتور لويس عوض في محاضرة ألقاها في بوسطن بالولايات المتحدة وأوردها في كتابه "رحلة الشرق والغرب"، ذكر "من أهم التناقضات التي استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصري ... فهي رغم إقفالها باب الحوار المثمر، قد اختارت لأسباب عملية أن تترك بدون إجابة كافة المسائل التي تمزق المجتمع المصري ... فهي قد تركت معلقاً بدون إجابة صراع القدماء والمحدثين، بأن تركت القديم والجديد يعيشان ويتعايشان ولم تعن إلا بإقامة توازن حرج، كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الجديد خشية أن يكون الجديد أكثر جدة مما يسوغ لها .. كذلك تركت موضوع الثيوقراطية والعلمانية كأساس للدولة معلقاً .. ففي حين قبلت فكرة الدولة القائمة على دعائم مدنية وعلمانية ... أتاحت منابر حرة لذلك النمط من واعظ

القرية المتخلف من العصور الوسطى ونشر التعاليم البيوريتانية من خلال التعليم وأجهزة الإعلام" .

"كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن تتعايش تعايشاً سلمياً في السنوات العشرين الماضية ومضت تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ رافضة أن تلتزم بنظرية محددة فبدت كأنها تطبق نوعاً من الحياد الإيجابي على كل النظريات ... وبالمثل سمحت لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسد نفسها فى سياسات تطبيقية أو حتى تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة" .

"كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري، وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التشاتم وأن التشاتم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة" .

"هذا النقص في النظرية أفضى إلى عجز الثورة عن أن تهيئ للشعب فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثورياً متجانساً في الحياة فهي قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتدوا على الخطوط العريضة لها أو على الأقل على دستور ١٩٧١" .

"صحيح أن الفلاح المصري الذي مسه الإصلاح الزراعي والعامل الذي مسه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة .. ومئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن في عهد الثورة بقوة الواقع بسبب تعليم المرأة وتشغيلها ولكنهن لم يتحررن بعد بقوة القانون بل لم ينلن أي اعتراف بالمساواة في مجتمع قائم على سيادة الذكور ..." .

"وقد أدى الاعتقاد في أن الثقافة العربية مكتفية بذاتها إلى توقف التواصل مع الثقافات الأخرى ولا سيما الغربية التي كانت تقليدياً خلال القرنين الماضيين فاعلاً جوهرياً في نهضة البلاد الناطقة بالعربية ... " . " وكان نتيجة ذلك أن أجيالاً وأجيالاً من الشباب كانت تلتحق بالجامعات بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية شيئاً ذا بال، وفي الوقت نفسه لأسباب مختلفة اضطرب ورود الكتب والدوريات والجرائد الأجنبية بعد أن كان سيلاً متصلاً، ومنعت الدولة الدراسة في الخارج إلا لأبحاث الدكتوراه ... " وانعزلت مصر عن الثقافة العالمية .

الدكتور جلال بنداري أورد في كتابه " العلاقة بين مجلس الشعب والجهاز المركزي للمحاسبات " أن " هناك العديد من الجهات والأجهزة والمؤسسات التي لا تخضع لرقابة الجهاز المركزي للمحاسبات وهي :

١- مجلس الشعب ٢- مجلس الشورى ٣- اتحاد الإذاعة والتليفزيون ٤- وزارة الدفاع ٥- جهاز المخابرات ٦- بنك الاستثمار القومي ٧- رئاسة الجمهورية ٨- مجلس الوزراء .

وبالرجوع إلى قانون تنظيم الجهاز ... كان لابد من أن تطرح تساؤلات عدة حول مبررات عدم خضوع هذه الأجهزة للرقابة .. و أيهما أجدى أن تخضع للرقابة أم يظل الوضع على ما هو عليه !! " .

والدكتور جلال اختار عدداً من تلك الأجهزة ليطبق عليها أسئلته، أحدها كان وزارة الدفاع " الإجابة على هذه التساؤلات المطروحة بالغة التعقيد " - "وفي البداية نود أن نؤكد أن الأصل أن تخضع كافة الإيرادات ونفقات الدولة

دون تمييز أو استثناء بسبب طبيعتها أو الجهة التي تقوم بإنفاقها، وبمراجعة القوانين المختلفة لجهاز المحاسبات منذ إنشائه وحتى الآن، نجد أنها لم تتضمن النص على استثناء موازنة وزارة الدفاع، بل العكس نجد أن ديوان المحاسبة عند إنشائه، أثبت واقعه العملي أنه قد بسط رقابته كاملة على المخالفات الجسيمة التي أدت إلى هزيمة الجيش المصري سنة ١٩٤٨، وما أعقب ذلك من تطورات سياسية ودستورية ... فقد تم تقديم استجواب إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء من حضرة الشيخ المحترم مصطفى مرعي بك عن الملاحظات التي تتعلق بالانحرافات المالية بخصوص مستشفى المواساة، والإنفاق في حملة فلسطين. وقد مكنت وزارة الحربية والبحرية آنذاك، ديوان المحاسبة من القيام بدوره المنوط في كشف كل الأخطاء والانحرافات في وزارة الحربية والبحرية، وهذا يعطي دلالة أكيدة على أن الديوان كان يستطيع النفاذ إلى مراقبة أدق أسرار الدولة العسكرية قبل الثورة. وإذا جاز التعبير فإنه ابتدأ من يوليو ٥٢ وحتى الآن، لم يقدم استجواب واحد عن الجيش المصري معتمداً على تقارير الجهاز المركزي للمحاسبات .. بذلك يتضح جلياً الدور الهام والفعال الذي لعبه ديوان المحاسبة في مناقشته هذا الاستجواب الذي يعد بحق من أقوى الاستجوابات التي شهدتها الحياة البرلمانية ".

الفارق بين جيش الملك وجيش ما بعد ٥٢ الذي تسبب في حيرة الدكتور جلال هذه يستدعي إلى الذاكرة مواقف مشابهة للجيشين، فالمعروف أن ضباط جيش الملك انقلبوا عليه بسبب انتخابات نادي الضباط التي حاول فيها فرض أحدهم، أو فلنقل أن هذه الانتخابات كانت القشة التي قسمت ظهر البعير ..

الغريب أنه منذ تلك الانتخابات لم تُجرى أي انتخابات أخرى لأندية الضباط، واكتفى القادة بتعيين مجالس إدارتها، بل لقد تطور الأمر بعد ذلك فأصبحت هناك مستشفيات ونوادي وأماكن أخرى لا يرتادها إلا كبار الضباط في تفرقة غريبة على من ثاروا لإزالة الفوارق بين الطبقات .

تحت عنوان مالية اتحاد الإذاعة جاء " ويتضح من النصوص أن موازنة اتحاد الإذاعة والتليفزيون - البالغة ٥ مليارات جنيه سنوياً - وضعت لها أحكام خاصة تتميز بها عن الموازنة العامة للدولة " . " فهي موازنة مستقلة وتصدر بقرار جمهوري، كما يتضح لنا أيضاً أنه ليس هناك ثمة ما يمنع من رقابة الجهاز على موازنة الاتحاد، إلا أن الواقع العملي يشهد أن موازنة الاتحاد لها نهج مغاير".

والدكتور جلال يختتم كتابه " كل هذه الأسئلة وغيرها تحتاج إلى دراسة وافية حتى لا يكون هناك تمييز بين بعض الموازنات وغيرها " .

والإجابة المسكوت عليها في كتاب الدكتور جلال بنداري أن النظام حرص على حجب كل ما يتصل بإنفاق ركائزه الأساسية ومنها الجيش والإعلام عن أي رقابة شعبية على أساس أنها أدواته الشخصية لا أدوات الشعب .

بالرغم من أن نصف أعضاء المجلس لا يستطيعون قراءة تقارير الجهاز المركزي للمحاسبات، والنصف الآخر سيجدها أرقام وبيانات مر عليها زمن طويل قبل أن تصل إلى يده مما يجعلها ليست ذات قيمة .

الدكتور فؤاد مرسي في كتابه " هذا الانفتاح الاقتصادي " صدر عام ١٩٧٥، يحذر بأعلى صوت ممكن من الأحداث التي واجهها المجتمع بعد ذلك

ولمدة ربع قرن . وهو يبدأ بما أعلنه تقرير مؤسسة داج همر شولد السنوي عن أنه " كلما أدمج البلد النامي اقتصاده القومي في الاقتصاد الرأسمالي العالمي كلما صار تابعاً، وكلما تعددت القيود التي توضع على حريته في تحديد أهدافه تحديداً قومياً مستقلاً" .

وهو يطرح وجهة نظره عن الرأسمالية وعجزها عن حل مشاكلها " وهي أعجز عن تقديمه لبلدان العالم الثالث. وعندئذ فإن خطر التبعية للرأسمالية العالمية يصبح خطراً بالتبعية للرأسمالية في حالة احتضارها. وكم يولد هذا الوضع من تناقضات سرعان ما تنعكس على اقتصادنا القومي المتخلف أضعافاً مضاعفة .. فالسوق المصرية مفتوحة الآن على مصراعيها على السوق الرأسمالية العالمية التي تنقل إلى الداخل كل ما يجرى من تضخم و أزمة في الخارج .. إن استيراد التضخم ليس قدراً محتوماً علينا " .

"واضح أن التزامات التنمية محددة، أما مصادر التمويل فغير مؤكدة، ومن ثم تقع مصر تحت رحمة مصادر التمويل، وتتجدد مخاطر التبعية الاقتصادية ... فمن خلال ما قامت به الولايات المتحدة في السنة الأخيرة، نلحظ ظاهرتين بالغتي الخطورة:

أولاً : محاولة الربط بين حل القضية الوطنية وحل المشكلة الاقتصادية .

ثانياً : محاولة تأمين الصلة الوثيقة بين الرأسمالية الأمريكية والرأسمالية المحلية. ومن هنا رَكَّزت الاتفاقية الاقتصادية المصرية الأمريكية على تعاون القطاعين الخاصين الأمريكي والمصري .... من ٤٠ إلى ٥٠ شركة من شركات الصناعة الأمريكية سوف تمثل في اللجان الاقتصادية المصرية الأمريكية " .

ويختتم الدكتور فؤاد كتابه "هذه الرأسمالية الكبيرة الطفيلية تُمارس الفساد والإفساد كأسلوب حياتها اليومي، مصر في نظرها حقل لأعمال المضاربة تنشر فيه اقتصاد الصفقات والعمولات، وتقيم مجتمع الرشاوى والارتزاق، وتطلق في أرجاء البلاد شريعة الغاب. وإزاء الوضع الاقتصادي المتدهور للجماهير، فإنها تعمل لإفساد وعي وضمير الشعب وبخاصة الفئات الوسطى من أجل ترويضها وفرض الواقع عليها في جرعات وعلى دفعات تجنباً للمقاومة المباشرة، وتجري عملية غسيل للمخ تجعل الشعب وبخاصة الفئات الوسطى في حالة من الحيرة الدائمة تصل الى حد التخدير وفى هذا الجو بالذات يتم الاعلان، بكل الطرق، عن استتباب السلام الاجتماعي واستقرار العلاقات الاجتماعية، بينما تزحف قوى الرجعية الجديدة بالتعاون مع الاستعمار الجديد لاحتلال مواقعها داخل أجهزة السلطة في الدولة، رافعة لافتات الانفتاح السياسي في أعقاب الانفتاح الاقتصادي".

ترى أين ذهبت مبادىء الثورة من محاربة الاستعمار والإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم !!

دكتور فخرى لبيب في كتابه " الشيوعيون وعبد الناصر " الجزء الأول، يصف لنا ما حدث له شخصياً في معسكرات الاعتقال:

"أخذوني وبدأ الضرب من جديد. في تلك المرة ابتكروا أسلوباً آخر. استخدموا سقف الجمانزيوم. في السقف أخشاب ممتدة شدوا إلى واحدة منها حبلاً من سلك، ربطوا قدمي في نهايته ،جذبوا السلك إلى أعلى فأصبحت رأسي إلى أسفل. صعدوا فوق منضدة وأخذوا في ضربى.

في هذا اليوم ضُربت ثماني عشرة ساعة من الأربعة وعشرين. فترات الراحة كانت رغماً عنهم، إذ كان لديهم عمل مع آخرين يستدعون للتحقيق ...."

" إشعاعات الشمس المبكرة تطل على المكان .... وجوه كالحة تقف أمام البوابة في انتظار القافلة، وصفوف من جنود تراصت على جانبي المدخل. القافلة تصل .. القائد وجوقته وزبانيته. حراس القيم والأخلاق - يلوثون طهر الصباح بفاحش القول و بذئ اللفظ. إن الذي يسمعهم ولا يراهم يخيل إليه أنه قد سقط في قلب ماخور من أحط المواخير، وأقلها قيمة أن قائد المعتقل الذي ائتمنه النظام على مصيره، والذي يتمتع بقدر من الجهالة يندى له الجبين يقف منفوخاً كالبالون يعلن فى أبهة كاذبة، أن عبد الناصر قد اختاره شخصياً لإدارة هذا المعتقل وللتعامل مع الكفرة الملاحدة ... قدم نفسه باعتباره رجلاً شديداً لا يعرف اللين، وطني والقادمون خونة، سعيد الحظ منهم من يخرج حياً من هذا المكان بعد عمر طويل، السيئة تعم والحسنة تخص، وكل مخالف للنظام سوف يعود إثمه على الجميع. بعد هذا الافتتاح والاستهلال- الرائع- بدأت حفلة الاستقبال، لكمة هنا وصفعة هناك،، كل حسب موقعه وطريقة مشيته. لم يكن الضرب منظماً. كان نوعاً من الإرهاب ".

«اصطف الجنود خلفنا. صرخ أحدهم: انظر أمامك. دوت فرقعة. لطمة على قفا أول من كان بالصف». وهكذا وصف الدكتور فخرى تلك الأعمال المخزية التي قام بها زبانية المعتقلات المختلفة.

ولكن فلنرى مع من تحالف الضباط " كان تجار المخدرات يلقون من الإدارة كل التسهيلات اللازمة للإشراف على تجارتهم من داخل المعتقل. فكان القائد

والضباط يأتون لهم بمعاونيهم إلى داخل المعسكر ليناقشوا معهم أمور تجارتهم. كان الواحد من هؤلاء التجار يخرج مع القائد أو الضابط في سيارة المعتقل بعد تمام المساء، ويذهب إلى بيته إن كان من سكان المنطقة أو إلى أحد بيوت الدعارة في الفيوم حيث يقضي وقتاً طيباً ثم يعودون عند الفجر. وفي مقابل ذلك كانت هناك هدايا تقدر بمئات الجنيهات للقائد وضباطه، وكانت لهم رواتب شهرية من تجار المخدرات، كما كانوا يتخلون عن المبلغ الذي رصدته وزارة الداخلية لإطعامهم معتمدين في غذائهم اليومي على أموالهم الخاصة ".

وهكذا تم معاملة مئات المثقفين والعمال وصغار الموظفين، وتمت معاملة تجار المخدرات !!

الأستاذ خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة، سرد وقائع الأيام الأولى لحركة العسكر في يوليو ٥٢ في كتابه " و الآن أتكلم ":

"في هذه الأثناء كان الضابط ذو الثلاثين عاماً خالد محيي الدين لم يزل يتمسك بالمبادىء التي قامت على أساسها " حركة الضباط الأحرار "؛ الديموقراطية .. الانتخابات .. البرلمان .. سيادة الشعب .. ودهش الضابط الشاب إذ وجد أن أساطين القانون الدستوري والذين طالما تحدثوا عن الدستور والبرلمان كانوا يستحثون الضباط ويحرضونهم على تأجيل الانتخابات، ورفض اجتماع مجلس النواب، ومن ثم تأجيل قضية الديموقراطية. وللتاريخ أسجل أن الدكتور عبد الرازق السنهوري وسليمان حافظ وعلي ماهر كانوا جميعاً يحرضون الضباط على تجاهل البرلمان والدستور. وطبعاً كانت هناك الكثرة الغالبة من الضباط الذين يستجيبون لذلك، ويتقبلونه بحماس بحكم أنهم

يستشعرون مصلحتهم في الاستمرار في حكم البلاد بأنفسهم " .

"المثير للدهشة حقاً هو أن السنهوري باشا اتخذ من قانون الإصلاح الزراعي ذريعة لضرب أي توجه ديموقراطي فقال : إذا كنتم تريدون كسب الشعب من خلال قانون الإصلاح الزراعي فإن آثار هذا القانون لن تظهر قبل خمس أو ست سنوات فكيف تسارعون بإجراء انتخابات في فبراير ؟وبدأ يستحثنا على ضرورة تأجيل الانتخابات لفترة تكفي لكسب جماهيرية حقيقية .. ومرة أخرى أصدم، فها هو كبير الفقهاء الدستوريين يستخدم القانون لضرب التوجه الديموقراطي، وطبعاً كان يجد آذاناً صاغية ... " .

" ويمكنني القول بأن أغلب من أحاطوا بالثورة من مستشارين ومن قوى سياسية، كانوا يعملون جميعاً من أجل استمرار العسكريين في الحكم، وضد الديموقراطية والبرلمان ... السنهوري وسليمان حافظ وفتحي رضوان كانوا يشجعون الضباط على تحدي الدستور والديموقراطية بحجة أنها ثورة وأن للثورة قانونها الخاص. كذلك كان سيد صبري أستاذ القانون الدستوري يشجع في هذا الاتجاه ويقول إنه لا مبرر بالتمسك بالنصوص وأن البلد في وضع ثوري وبحاجة إلى خطوات ثورية وفقه ثوري .. والأخوان المسلمون كانوا يشجعون هذا الاتجاه ربما بأمل ضرب كل القوى السياسية الأخرى ثم بعدها يحتوون الثورة " .

" ولقد بذلت جهدي، ولم أزل حتى الآن أعتقد أنني لو كنت قد حصلت على فرصة إنجاح هذه الفكرة، لكان مسار الثورة قد تغير، ولكان تاريخ مصر قد تغير أيضاً ولتحصنت الثورة ضد ما وقعت فيه من أخطاء تالية من انتهاك

لحريات الأفـراد والقوى السـياسـية، ولنهـجت نهجـاً ثورياً وديموقراطيـاً في آن واحد" .

" للحقيقـة فإنني أعتقد أن أزمة الديموقراطيـة التي ولدتها ثورة يوليو لم تزل قائمة في بلادنا حتى الآن " .

الدكـتـور عـبد الرازق السـنهوري المحـرض الأول على تجـاهل الدسـتـور والبـرلمان، ذاق في النهاية مـعنى هذا التجـاهل، بعد أن ضـربه واحد من الـثوار بالحذاء في مكتبه بقلعة الدستور .

دكتور عـبد العظيم رمضان في كـتابه " مصر في عصـر السادات " تساءل " هل كان يوم ٢٣ يوليو ثورة أم إجهاضاً للثورة !! " .

" إن مصـر عند قيـام ثورة ٢٣ يوليو كـانت حبلى بالثـورة والمد الثوري الشـعبي العـارم ضد الـنظام الملكي الإقطاعي وألوان الفـسـاد الذي كان يزخـر به .. وكـانت الشوارع مـلأى بالمظاهرات الشعـبيـة التي تهتف بسـقوط الاسـتعـمـار، واسم الملك فاروق يُـلعن بأعلى الأصوات وبجـرأة في ساحـات الجامـعات، وتضـامن العـمال والطلبة والبوليس والجيش، وهبات الفـلاحين في معاقل الإقطاع وإضرابات العمال في معاقل الرأسمالية الإمبرياليـة تخلع قلوب السلطة العميلة، والمضمون الاجتماعي للحركـة الثورية يبـرز في كل مظهر من مظاهر الحـركة السـياسـية ..... بل أن دوائر الاحتكارات الرأسـماليـة الكبيرة كـانت قد أخـذت تضيق بالدور الطفـيلي لفاروق وبطانته الفاسدة، وبدأ القلق يساورها على النظام الذي كان يحقق مصـالحها أن تهدمه ثورة اجتماعـية تهز أرض المنطقة وأخذت تفكر في إنقاذه عـن طريق انقلاب مصري علوي يطيح بفاروق فقط ويحتفظ بأسس النظام وأعمدته " .

ثم قدم حججه وأسانيده بأن " الثورة كانت إجهاضاً للثورة الحقيقية " سأوجزها في :

١ - صلة حركة الضباط الأحرار بالمخابرات الأمريكية كما جاء في كتاب مايلز كوبلاند " لعبة الأمم ".

٢ - الدوائر الإمبريالية لم تنزعج بقيام الثورة حتى بالرغم من صدور القوانين الخاصة بالإصلاح الزراعي .

٣- اتبعت الثورة سياسة الإقصاء والسجن والوصاية على القوى الثورية السابقة لها .

٤ - كبت حرية الرأى وصل إلى درجة لم تحدث في أشد عهود الرجعية ظلاماً.

٥- فرضت عهداً من الإرهاب لم تعرفه الأنظمة الفاشية نفسها .

٦- اعتمدت دواماً على القوى الرجعية .

٧- انتقلت مصر بثورة يوليو إلى حكم عسكري طويل، ورغم هذا فقد قاست من هزائم عديدة أهمها هزيمة ٦٧ .

٨- قادت حركة التصنيع بقيادات بيروقراطية أدت لتدهور الصناعة .

ثم أورد بعد ذلك ما رأى أنه مبرر لأسباب حدوث حججه وأسانيده السابقة فيما يشبه الاعتذارات، فالثورة بالرغم من صلتها بالمخابرات الأمريكية كانت في رأيه ثورة وطنية، وأن الإصلاح الزراعي كان المرحلة النهائية التي أهلت للدخول في الحقبة الرأسمالية تمهيداً للاشتراكية، وأن الثورة لم يكن بوسعها الحكم مع وجود الوفد ذو الشعبية الطاغية فدمرته. أما الأخوان فقد

أعدوا نظاماً مسلحاً فعادتهم، والشيوعيون كان خلافهم مع الثورة حول تطبيق الاشتراكية .. في رأى الدكتور عبد العظيم أن الثورة اعتمدت على العناصر الرجعية لأنه لم يكن أمامها غيرهم. أما الهزائم العسكرية فتعود للفارق المهول بين إمكانيات الإمبريالية وإمكانيات الثورة الذاتية ، ومع ذلك فلقد حطمت إمبراطوريات وأساطير، وأسقطت أسماء لوامع لإمبرياليين عتاة " أما الإرهاب وكبت حرية الرأى والتعذيب، والأساليب الفاشية التي استخدمتها ثورة يوليو، فإن أحداً لا يستطيع أن يدافع عنها فهذه بصمات سوف تلاحق هذه الثورة على مدى التاريخ " .

الدكتور يوسف إدريس يزعق بأعلى صوت عن " أهمية أن نتثقف يا ناس " ويكتب في تقديم كتابه :

" أعتقد أن الوجود المصري الحالي يمر بأعنف أزمة وجود منذ غزو سليم الأول لمصر في العصور القديمة، ذلك الغزو الذي كان بداية لعشرات ومئات السنين المتلاحقة من إضعاف إثر إضعاف للوجود المصري حتى تحولت مصر من قاهرة للصليبيين والتتار إلى مجرد ضيعة تركية شعبها امتص إلى آخر قطرة من دمه وقمحه وصناعته وتجارته ومشايخها (مثقفو ذلك العصر وقياداته الفكرية) قد تحولوا إلى العقم الفكري وبدأت تنتشر بين الشعب الخزعبلات وتؤدي إلى ردة فكرية إسلامية أبعدته عن روح الإسلام إلى التمسك بشكلياته..... ".

"ومع اختلاف الزمن واختلاف العدو، فإن الحقبة السبعينية من هذا القرن العشرين قد أسقطتنا – في رأيي – إلى هوة من الصعب الآن أن نتخيل كنه أبعادها .

وإذا كان البعض - وهم كثيـرون - لم يدركوا مدى الضربة التي حاقت بنا، وأبعاد التـدهور الذي وصلنا إليه، فـما ذلك إلا لأن هناك ثمة مـخدرات فكرية وثقافـية - أو بالأصح تُشاع في الجو باسم الفكر والثـقافة والسينمـا والمسرح - تغيب منا الأبصار وتكاد تُعمي العيون .. المخـدرات نفسها التي أصبحت تشيع باسم الدين والدين منها برىء، ولا يختلف الداعية للخزعبلات الدينية عن ممثل قطاع المسرح الخاص حين يخرج على النص ويحيل المسرح ذلك المكان المقدس المقـام لتقـال فـيه كلمـة الحق إلى مكان كـالكبـاريه يخلخل القـيم ويشكك في الوجود، بل ويفكك عُرى الشعب ؛ بحيث يتحول الإنسان المصرى إلى جزء لا كل له، إلى فتات المجتمع، إلى كافر بحـماية أهله ووطنه له بحيث تصبح مسألة ابتلاعه في تطلعات طبقية ومغريات استهـلاكية مسألة وقت محدود تنتهى فيها مقاومته، ويضرب صفحاً عن قيـمه، ويستسلم ويبيع نفسه سواء داخل مصر أو خارجها ".

" ومن العجيب أن هذا كله يحدث بينما الصحـف الرسمية وأجهزة الإعلام تردد كلامـاً أجوف حول الانتمـاء ومصريتنا التي لابد أن يحـميهـا الله وكأنهم ليسـوا هم الذين يفتتون هذا الانتـماء ... إذن هناك مؤامرة مـتفق عليهـا أو غير متفق ... للعقل المصري والعربي بفعل فاعل، ضاربة الأطناب في كل بلد عربي على حده .... فـالاستعمـار هذه المرة لم يأت بجيوش ولا بأسـاطيل ولم يحتل بلادنا بأجساد وإنما مد أدواته وألسنتـه وكتبه ودعاته إلى مجتمـعاتنا حتى أصبح يتحكم فيها بما يمكن أن نسمـيه (الريموت كنترول) أو التحكم عن بعد، وإعاثة الفساد عن بعد، معتمداً على طابور خامس من أهل البلد، من سماسرته ودعاته

والمستفيدين من جهل شعبنا وجهالته وعدم إدراكه لما يُراد به ولما يتعرض له ".

ألهذه الدرجة وصل اليأس بالمثقفين المصريين حتى يسعوا فى البرية يصرخون ! .

صارخ آخر في البرية ، الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه " مفهوم النص " يكتب .

«إن الاتجاه المقابل في الخطاب الديني المعاصر هو تيار " التجديد" وهو تيار يرى أننا لا يمكن أن نقلد القدماء، فقد عاش القدماء عصرهم واجتهدوا وأسسوا علوماً وأقاموا حضارة ووضعوا فلسفة وصاغوا فكراً ومجمل هذا كله هو " التراث " الذي ورثناه عنهم، وهو تراث ما زال يساهم في تشكيل وعينا ويؤثر في سلوكنا بوعي أو بدون وعي، وإذا كنا لا نستطيع أن نتجاهل هذا التراث ونسقطه من حسابنا فإننا بنفس القدر لا نستطيع أن نتقبله كما هو، بل علينا أن نعيد صياغته فنطرح عنه ما هو غير ملائم لعصرنا ونؤكد فيه الجوانب الإيجابية ونجددها ونصوغها بلغة مناسبة لعصرنا، إنه التجديد الذي لا غناء عنه إذا كنا نريد أن نتجاوز أزمتنا الراهنة .. إنه التجديد الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة " " وليست القضية هي " تجديد التراث " أو " التراث والتجديد " لأن البداية هي " التراث " وليس التجديد، إلا من أجل الاستمرار في الثقافة الوطنية وتأصيل الحاضر ودفعه نحو التقدم والمشاركة في قضايا التغير الاجتماعي. التراث هو نقطة البداية كمسئولية ثقافية وقومية والتجديد هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد والأصالة أساس المعاصرة".

" إن التجديد يقوم على أساس وجود أصل قديم، لكن هذا الأصل القديم

الذى هو التراث ليس واحداً بل هو متنوع متغير طبقاً لطبيعة القوى المنتجة له. إن التراث ليس معطى واحداً، بل هو اتجاهات وتيارات عبّرت عن مواقف وقوى اجتماعية وعن أيديولوجيات ورؤى مختلفة " .

" إن المجدد أمام هذا التغاير في اتجاهات التراث، وأمام هذا التنوع من منطلقاته وأسسه النظرية والاجتماعية، لا سبيل لديه سوى الاختيار الذي يحدده موقف الباحث من الواقع الذي يعيش فيه بوصفه شرطاً أولياً للتجديد .. وإذا كان من حق كل باحث أن يساهم في تجديد التراث فلا شك أن الهيمنة والسيطرة ستكون لأنصار أشد الاتجاهات تخلفاً ورجعية، بحكم سيطرة هذه الاتجاهات على مجمل التراث لفترة طويلة من جهة، وبحكم سيطرة أنصار هذه الاتجاهات في التراث على الواقع وعلى المؤسسات الثقافية من جهة أخرى . إن مطلب التجديد على وجاهته و أهميته إن لم يستند إلى فهم " علمي " للأصول الموضوعية التي قام التراث على أساسها كفيل بأن يؤدي إلى تكريس أشد عناصر التراث تخلفاً إلى جانب أنه يساند - دون وعي - أشد القوى سيطرة وهيمنة ورجعية في الواقع الراهن " .

أو بمعنى آخر: استمرار الإيمان بأن دلوكة العجوز حكمت مصر ثلاثمائة عام بالسحر والطلسمات .

الأستاذ سمير مرقص في كتابه " الحماية والعقاب " يثير بصبر وهدوء قضية مسكوتاً عليها في مجتمعنا المصري بدعوى الحفاظ على الوحدة الوطنية، فهو يورد ما كتبه الأستاذ عبد الجواد ياسين في كتابه " مقدمة في فقه الجاهلية المعاصرة " أن المجتمع المصري اليوم في حقيقته مجتمع جاهلي محصناً .. وأن

الدعوة اليوم بصدد التوجه إلى هذا الشعب بالإسلام من جديد ... وفتح مصر مجدداً.. وأن الجهاد والفتح هما وسيلة الإسلام لإبلاغ الناس دعوتهم ... أما القبط فينبغي أن يشعروا بقوة الإسلام وعظمته وسموه وبره وخيره وكرمه وسماحته أي وضعهم في حالة تدفعهم للدخول فيه اختياراً " .

مرقص في مواجهة مثل هذا المنطق يعلق " وهكذا يجد الأقباط أنفسهم أمام واقع متناقض. تناقض بين ما يقال ومعلن وبين ما يمارس عملياً. تناقض بين ما هو منصوص عليه ويتضمن قيماً إيجابية اختبرت تاريخياً وبين تطبيقات مخالفة حالياً .. تناقض بين توقعاته في ضوء الخبرة التاريخية والتراث المصري لوحدة الجماعة المصرية وبين ما يراه أمامه على أرض الواقع ... إن الأقباط يصبحون في النهاية أمام أمرين: إما التواجد والمشاركة واستكمال المسيرة الوطنية مما يعني الاصطدام وبين الانسحاب حفاظاً على وحدة الجماعة وسلامتها.. فنجده يؤثر الانسحاب " .

"إنه بمراجعة مضمون ما يثار حول الأقباط نكتشف أن هناك إخفاقاً في فهم الأقباط، ومن ثم الأطروحات التي تبنى على الفهم الخاطئ، فنجد من ينطلق من تناوله لهم من أرضية أنهم (ذمة - ملة) وعليه أن يعيد طرح قانونية وضعهم السياسي (الطائفيون)، وهناك من يقترب منهم مدافعاً عن حقوقهم مطالباً بأشكال عدة لحمايتهم باعتبارهم أقلية (الأقليون) ... إن تعبير الأقباط يعادل كلمة «مصريون». الأقباط حسب - عزيز سوريال - يتحدرون من المصريين القدماء، وهم حسب تعبير - ليدر - أبناء الفراعنة المحدثون، فهم يمثلون النموذج الأقرب إلى قدماء المصريين في ملامحهم وصفاتهم ... إن

الأقباط ليسوا ساميين ولا حاميين بل بحر متوسطين " .

مرقص في نهاية كتابه الأكثر من جاد، يتمسك بأن الأقباط مواطنون مصريون، ويتابع مواطنتهم منذ مشروع محمد علي النهضوي، وتبلور المواطنة مع ثورة ١٩١٩، وحكومات الوفد، ثم المواطنة المبتسرة مع حاكم ٢٣ يوليو عبد الناصر، ثم تغيب المواطنة مع السادات والمواطنة المستعادة في الفترة الحالية حيث لا ديكتاتورية ولا ديموقراطية .

أما الكنيسة المصرية " فظلت تلعب دور القيادة الوطنية والإطار الحامي للشخصية الوطنية المصرية والمدافع عن مصالح المصريين " ٠" وعبر قرون طويلة كانت مصر ولاية مستعمرة تابعة لدولة عظمى، في حين كان لها كنيسة مستقلة، فأصبحت رمزاً للإستقلال القومي في غياب الاستقلال السياسي " .

والآن ماذا قدم مثقفو النصف الثاني من القرن العشرين ؟

هل قدموا منهجاً علمياً وبرنامجاً للتنمية أم لا تزال أمانيهم تدور حول تهويمات الميتافيزيقا، تنتظر المعجزة.

هل المعجزة أن يقرأ الحكام ... ما تنتجه الهيئات الاستشارية والمجالس القومية المتخصصة من أبحاث واقتراحات بدلاً من أن تُزَيِّن مجلداتها رفوف مكتباتهم .

أم أن يتخلى صيادو الثروات والفرص عن شرههم ورغباتهم في امتصاص آخر قطرة من قطرات دماء هذا الشعب .

هل المعجزة بريسترويكا مصرية تطرح تغييراً في التوجهات والأفكار السياسية والاجتماعية على نمط ما فعل جورباتشوف لتقويض دولة الحكم الشامل .

أم هي وحدة عربية - أفريقية - بحر أبيض - شرق أوسطية على نهج الوحدة الأوروبية تضعنا في مكاننا بين درر البحر الأبيض الشمالية .

هل المعجزة أن ننتج طعامنا وملابسنا وأدواتنا وثقافتنا، ونحل عربتنا من قاطرة المساعدات الأمريكية والثقافة الأمريكية والإعلام الأمريكي أم أن لأصدقاء النمط الأمريكي في الحياة رأي آخر .

لقد حذرتكم في بداية هذا الفصل من أن كم المعلومات الهائل يؤدي إلى نفس درجة العجز الذي يحدثه نضوب المعلومة .. و ها أنذا في حيرة أمامكم، فهناك العديد من أبناء هذا الشعب العارفين المدركين لأسباب نكستهم وطرق علاجها، ولكن على الجانب الآخر هناك من يمتلك السيطرة على عقل ووعي الجماهير بواسطة جني العصر الحديث الشرير من أجهزة إعلام وصحافة وأدوات تأثير جماعية تغرق المجتمع في طوفان من الأكاذيب والأفكار السخيفة والاتجاهات العقيمة والبدع الممجوجة المانعة من إدراك الحقيقة .. وطالما يمتلك هؤلاء هذا التأثير، فإنني لا آمل إلا في معجزة من معجزات الزمن السالف ؛ جني طيب يُزيح الجني الشرير أو مصباح علاء الدين الحديث الذي يفك طلسمات مصر ؛ فيبصر أهلها ما هم فيه من بؤس وتردي وحيرة ... يبصرون .. فقط يبصرون ... وقد تعمل الجينات التي يحملونها من زمن تحتمس الثالث على أن يبلغ الأحفاد ما كان عليه الأجداد.

القاهرة - ١٦/ ٣/ ٢٠٠٣م.

الفهرس